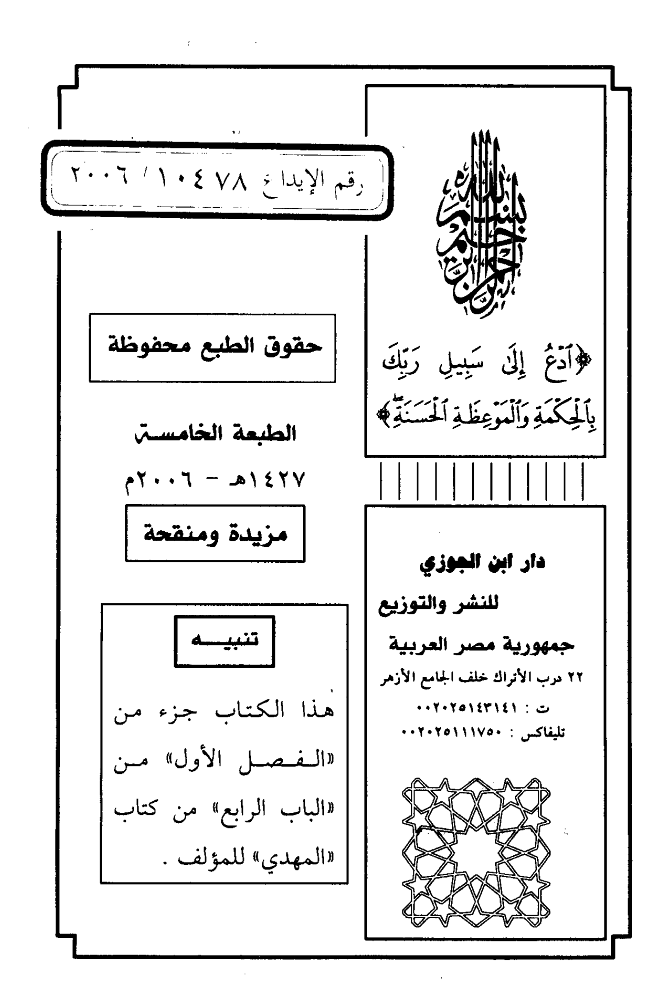
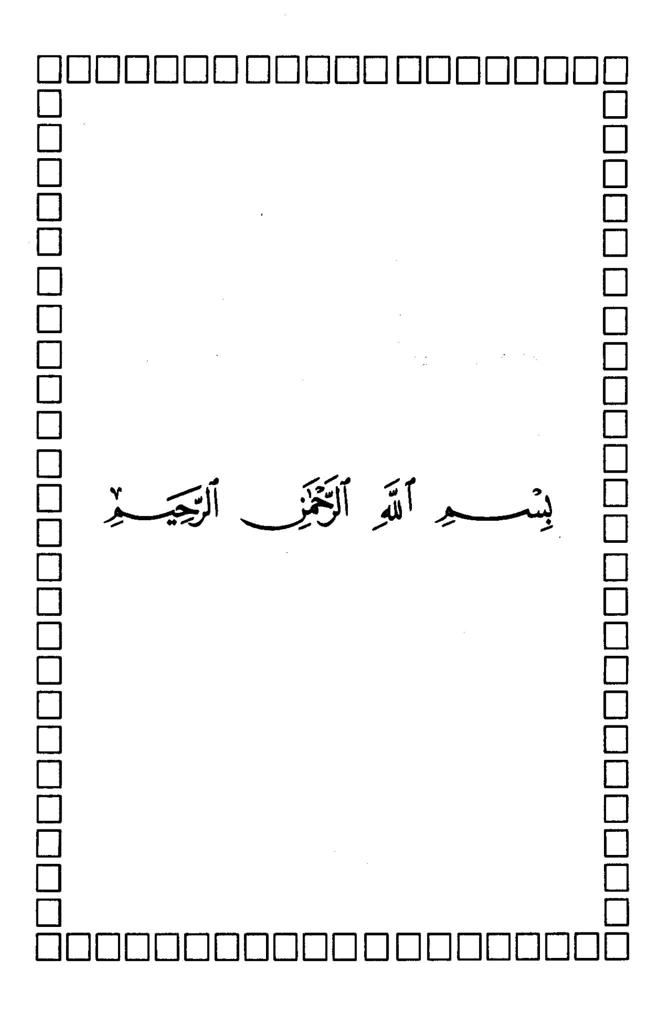
حركة
مهدي المغاربة


بسم الله الرحمن الرحيم
﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾
رقم الإيداع ١٠٤٧٨ / ٢٠٠٦
حقوق الطبع محفوظة
الطبعة الخامسة
١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م
مزيدة ومنقحة
دار ابن الجوزي
للنشر والتوزيع
جمهورية مصر العربية
٢٢ درب الأتراك خلف الجامع الأزهر
ت : ٠٠٢٠٢٥١٤٣١٤١
تليفاكس : ٠٠٢٠٢٥١١١٧٥٠
تنبيه
هذا الكتاب جزء من «الفصل الأول» من «الباب الرابع» من كتاب «المهدي» للمؤلف .

حركة مهدي المغاربة

تاليف
الدكتور / محمد احمد إسماعيل المُقَدَّم
عفا اللَّه عنه

الناشر
دار ابن الجوزي
٢٢ درب الأتراك - خلف الجامع الأزهر - ت : ٥١٤٣١٤١


بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله الرحمن الرحيم

حركة مهدي المغاربة ابْنِ تُومَرْتَ
مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْبَرْبَرِيِّ الْهَرْغِيِّ(١)

في أواخر سنة ٥١٤هـ (١١٢٠م) وقعت بمدينة مرَّاكُش أول بادرة مؤذنة ببداية الثورة الدينية التي اضطلع بها محمد بن تومرت ضد الدولة المرابطية .

---

(١) مصادر هذه الترجمة : « دولة الإسلام في الأندلس » - الجزء الرابع - لمحمد عبد الله عنان ؛ « سير أعلام النبلاء » للحافظ الذهبي (١٩/٥٣٩- ٥٥٢) ، « الكامل » لابن الأثير (١٠/ ٥٦٩، ٥٨٢) ، « وفيات الأعيان » لابن خلكان (٥/٤٥- ٥٥) ، « تذكرة الحفَّاظ » للذهبي (٤/١٢٧٤) ، « طبقات السبكي » (٦/ ١٠٩- ١١٧) ، « البداية والنهاية » لابن كثير (١٢/ ١٨٦، ١٨٧) ، « شذرات الذهب » ، لابن العماد (٤/ ٧٠- ٧٢) ، « دولة الموحدين » للدكتور علي محمد الصلابي ؛ « أطلس تاريخ الإسلام » ، (ص١٨١) .

ففي ذات يوم جمعة ، من هذه السنة ، دخل إلى المسجد الجامع رجل صغير القد ، متواضع الهيئة ، وجلس على مقربة من المحراب بإزاء الموضع المخصص لجلوس أمير المسلمين ، فلما اعترض على ذلك بعض سَدَنَة الجامع ، تلا الآية : ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن : ١٨] ، ولما حضر أمير المسلمين علي بن يوسف ، نهض سائر الحضور ، إلَّا ذلك الرجل ، فلما انتهت الصلاة بادر الرجل بالسلام على عليٍّ ، وقال له فيما قال : « غَيِّرِ المنكر في بلدك ، فأنت المسئول عن رعيتك » ، وبكى ، فلم يجبه أمير المسلمين بشيء ، ولما عاد إلى القصر سأل عنه ، فقيل له : « إنه قريب العهد بالوصول ، وهو يؤلف الناس ، ويقول لهم : إن السنة قد ذهبت » ، فأمر علي بن يوسف ، وزيره عمر بن ينتان أن يكشف عن أمره ومقصده ، فإن كانت له حاجة ينظر في قضائها ، فقال الرجل : « ليس لي حاجة ، وما قصدي إلا تغيير المنكرات » .

كان هذا الرجل هو محمد بن تومرت ، وكان قد آب من رحلته إلى المشرق ؛ ونزل بمراكش ، بعد أن طاف ببعض مدن

المغرب الشمالية ، وهو يدعو للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

وأصل هذا الرجل من قبيلة « هَرْغَة » إحدى بطون « مصمودة » الكبرى ، وقد اختلف في تاريخ مولده فيما بين ٤٧١، ٤٩١هـ ، واسمه محمد بن عبد الله ، ووالده من أهل السوس ، وكان يقال لوالده « تومَرت » أي الضياء الذي يوقد في المسجد ، وقيل : إنه لما وُلد فرحت به أمه وسُرَّت ، فقالت بلسانها : « آتومرت آينو أيسك آييوي » ، ومعناه : يا فرحتي بك يا بني ، وكانت إذا سئلت عن ابنها وهو صغير ، تقول : « يك تومرت » ، معناه : صار فرحًا مسرورًا ، فغلب عليه اسم تومرت ، وتُرك دعاؤه باسمه الأول عبد الله[1] .

قال الحافظ الذهبي – رحمه الله – في التعريف به :

« الخارج بالمغرب ، المدَّعي أنه عَلَوِيٌّ حَسَني ، وأنه الإمام المهدي ، وأنه معصوم ، وهو بالإجماع مخصوم . رَحَلَ من السوس الأقصى شابًّا إلى المشرق ، فحج ، وتفَقَّهَ ، وحصَّل أطرافًا من العلم ، وكان لَهِجًا بعلم الكلام ، خائضًا في مزالِّ الأقدام ،

(١) « دولة الإسلام في الأندلس » (٤/ ١٥٨، ١٥٩) .

أَلَّف عقيدةً لقَّبها « بالمرشدة » ، وحمل عليها أتباعه ، وسمَّاهم الموحِّدين ، ونبز من خالف « المرشدة » بالتجسيم ، وأباح دمه ، نعوذ بالله من الغَيِّ والهوى !

وكان خَشِنَ العيشِ ، فقيرًا ، قانعًا باليسير ، مقتصِرًا على زِيِّ الفَقْرِ ، لا لَذَّةَ له في مأكَلٍ ، ولا مَنْكَح ، ولا مال ، ولا في شيءٍ غير رياسة الأمر ، حتى لَقِيَ الله- تَعَالَى- .

لكنه دخل- واللَّهِ- في الدِّماءِ ؛ لنَيل الرياسة المُرْدِيَة .

وله فصاحةٌ في العربية ، والبربرية ، وكان يأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر ، ويُؤذَى ، ويُضْرَب ، ويصبر .

أُوذِيَ بمكة ؛ فراح إلى مِصرَ ، وبالغ في الإنكار ، فطردُوه ، وآذَوْهُ ، وكان إذا خاف مِن البطشِ بهِ خلَّط وتَبَالَهَ »[1] .

ثم سكن الثَّغر[2] مدَّةً ، ثم ركِبَ البحر إلى المغربِ من الإسكندرية في أواخر سنة ٥١١هـ (١١١٧م) ، ويقال إنه خرج

(١) « سير أعلام النبلاء » (١٩/ ٥٣٩- ٥٤٢) بتصرف .

(٢) أي : الإسكندرية .

منفيًا من الإسكندرية ، لما ترتب من شَغْب على نشاطه في مطاردة المنكر ، بيدَ أنه استمر في دعوته إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وهو على ظهر السفينة التي أقلته ، فألزم ركابها بإقامة الصلاة وقراءة القرآن ، واشتد في ذلك حتى قيل إن ركاب السفينة ألقوه إلى البحر ، فلبث أكثر من نصف يوم يسبح إلى جانبها دون أن يصيبه شيء ، فلما رأوا ذلك أنزلوا إليه من رفعه من الماء ، وقد عظم في نفوسهم ، وبالغوا في إكرامه . ولما وصل إلى « المهدية » ، نزل بمسجد من مساجدها ، وليس معه سوى ركوة ماء وعصا ، فتسامع به الناس ، وأقبل الطلاب يقرءون عليه مختلف العلوم ، وكان إذا شاهد منكرًا من آلات الملاهي ، أو أواني الخمر ، بادر إلى إزالته وكسرها ، وأصابه بسبب ذلك بعض الأذى ، ووصل خبره إلى الأمير يحيى بن تميم بن المعز بن باديس ملك إفريقية ، فاستدعاه مع جماعة من الفقهاء ، فلما رأى سمته ، واستمع إلى مناقشاته ؛ أعجب به وأكرمه وسأله الدعاء[1] فقال : « أصلحك الله لرعيتك! » .

---

(١) « دولة الإسلام في الأندلس » (٤/ ١٦٤، ١٦٥) .

قال الحافظ الذهبي – رحمه الله تعالى –:

« وسار إلى بَجاية ، فبقي يُنكِرُ كعادته ؛ فنُفِيَ ، فذهب إلى قرية مَلَّالة ، فوقع بها بعبدِ المؤمن[1] الذي تسلطَن ، وكان أَمْرَدَ عاقلًا ، فقال : « يا شابُّ ، ما اسمُكَ ؟ » قال : عبدُ المؤمن ، قال : « الله أكبرُ ، أنت طَلِبَتِي ، فأين مقصِدُكَ؟ » ، قال : طلبُ العلم ، قال : « قد وجدتَ العلمَ ، والشَّرفَ ، اصْحَبْني » ، ونظر في حليته ، فوافَقَتْ ما عنده مما ادعى أنه اطلع عليه من كتاب الجَفْرِ[2] ، فقال :

---

(١) عبد المؤمن بن علي القيسي (ت ٥٥٨هـ) ، انظر ترجمته في : « سير أعلام النبلاء » (٢٠/٣٦٦) ، « وفيات الأعيان » (٣/ ٢٣٧- ٢٤١) ، « البداية والنهاية » (١٢/ ٢٤٦، ٢٤٧) ، « شذرات الذهب » (٤/١٨٣) ، « دولة الإسلام » (٤/١٦٥) .

(٢) (الجَفر – بفتح الجيم وسكون الفاء – من أولاد المعز : ما بلغ أربعة أشهر ، والمراد هنا جلد المعز الذي كُتِبَ فيه ، وهذا الكتاب يَزْعُمُ الإمامية أن جعفرًا الصادق – رحمه الله – كتب لهم فيه كل ما يحتاجون إليه ، وكل ما سيَقَعُ ويكون إلى يوم القيامة ، وكان مكتوبًا عنده في جلد ماعز ، فكتبه عنه هارون ابن سعيد العجلي رأس الزيدية ، وسماه الجَفْر باسم الجلد الذي كُتِبَ فيه ، وهذا زَعْمٌ باطل ؛ فإن جعفرًا الصادق كجده أمير المؤمنين لا يعلم الغيب ، =

....

= وقد ثبت عن جده أمير المؤمنين - رضي اللّٰه عنه - أن رسول الله ﷺ لم يخصه بشيء من دون أصحابه، كما في صحيح البخاري (١١١) و(١٨٧٠) و(٣١٧٢) و(٣١٧٩) و(٦٧٥٥) و(٦٩٠٣) و(٦٩١٥) و(٧٣٠٠)، من طريق أبي جُحَيْفَةَ السوائي، قال: سألت عليًّا رضي الله عنه: هل عندكم شيء مما ليس في القرآن، أو ما ليس عند الناس؟ فقال: والذي فلق الحبة، وبرأ النسمة، ما عندنا إلا ما في القرآن؛ إلا فهمًا يُعطى رجل في كتابه، وما في هذه الصحيفة، قال: قلت: فما هذه الصحيفة؟ قال: «العقل؛ وفكاك الأسير، ولا يُقْتَلُ مسلم بكافر». قال الحافظ ابن حجر: وإنما سأله أبو جُحَيْفَةَ عن ذلك؛ لأن جماعة من الشيعة كانوا يزعمون أن عند أهل البيت - لا سيما عليًّا - أشياء من الوحي خصهم النبي ﷺ بها لم يَطَّلِعْ غيرهم عليها.

ونقل العيني في «عمدته»: (١٦١/١) عن ابن بطال قوله: فيه ما يقطع بدعة الشيعة والمدَّعين على علي - رضي اللّٰه عنه - أنه الوصي، وأنه المخصوص بعلم من عند رسول الله ﷺ، لم يعرفه غيره؛ حيث قال: ما عنده إلا ما عند الناس من كتاب الله، ثم أحال على الفهم الذي الناس فيه على درجاتهم، ولم يخص نفسه بشيء غير ما هو ممكن في غيره.

على أن الكتاب لا تصح نسبته إلى جعفر الصادق - رحمه الله -، والذين =

....

= نسبوه إليه من أجهل الناس بمعرفة المنقولات ، والأحاديث ، والآثار ، والتمييز بين صحيحها وضعيفها ، وعمدتهم في المنقولات التواريخ المنقطعة الإسناد ، وكثير منها من وَضْعِ من عُرِفَ بالكذب والاختلاق ؛ كأبي مخنف لوط ، وهشام بن محمد بن السائب ، وأمثالهما ، وغير خافٍ على طلبة العلم أن ما لا يُعْلَمُ إلا من طريق النقل ؛ لا يمكن الحكم بثبوته إلا بالرواية الصحيحة السند ، فإذا لم تُوجَدْ ؛ فلا يسوغ لنا شرعًا وعقلًا أن نقول بثبوته . وانظر « أبجد العلوم » (٢/ ٢١٤- ٢١٦) ، و« لُقَطَةَ العجلان » ، كلاهما لصديق حسن خان ، ومجلة المنار ٤/ ٦٠، للسيد رشيد رضا) . اهـ . من تعليق الشيخ شعيب الأرناؤط على « سير أعلام النبلاء » (١٩/ ٥٤٢- ٥٤٣)، وانظر : « كتب حذر منها العلماء » (١/ ١٠٨- ١٢٣) .

وقد نقل ابن خلكان (٣/ ٢٤٠) عن ابن قتيبة قوله : « وأعجب من هذا التفسير تفسير الروافض للقرآن الكريم ، وما يدَّعونه من علم باطنه بما وقع إليهم من الجفر الذي ذكره هارون بن سعيد العجلي ، وكان رأس الزيدية ، فقال :

أَلَـمْ تَـرَ أَنَّ الـرَّافِـضِـيـنَ تَـفَـرَّقُـوا ... فَكُلُّهُـمْ فِي جَعْفَرٍ قَالَ مُنْكَرَا
فَـطَـائِـفَـةٌ قَـالُـوا إِمَـامٌ وَمِـنْـهُـمُ ... طَوَائِفُ سَمَّتْهُ النَّبِيَّ الـمُطَهَّرَا
وَمِنْ عَجَبٍ لَمْ أَقْضِهِ جِلْدُ جَفْرِهِم ... بَرِئْتُ إِلَى الرَّحْمَنِ مِمَّنْ تَجَفَّرَا

« ممن أنت ؟ » ، قال : « مِن كُومية »[١] ، فربط الشاب ، وشوَّقه إلى أمورٍ عَشِقَها ، وأفضَى إليه بسرِّه ، وكان في صُحبته الفقيهُ عبدُ اللهِ الوَنْشَرِيسِي ، وكان جميلًا نَحْوِيًّا ، فاتفقا على أن يُخفيَ علمَهُ ، وفصاحَتَهُ ، ويتظاهرَ بالجهل واللَّكَنِ مدةً ، ثم يجعلَ إظهار نفسِهِ معجزةً ، ففعل ذلك ، ثم عَمَدَ إلى ستة من أجلاد أتباعِه ، وسار بهم إلى مرَّاكشَ[٢] ، وهي لابنِ تاشفين ، فأخذوا في الإنكار[٣] ، فخوَّفوا الملك منهم ، وكانوا بمسجد خرابٍ ، فأحضرهم الملكُ ، فكلَّموه فيما وقع فيه مِن سَبِّ الملك ، فقال : « ما نُقِلَ من الوقيعة فيه فقد قلته ، ولي مِن ورائه أقوال ، وأنتم

(١) بضم الكاف وسكون الواو : قبيلة صغيرة كانت تنزل بساحل البحر من أعمال تلمسان .

(٢) لما طُرد ابن تومرت من فاس ، توجه إلى مرَّاكش مقر حكم المرابطين ، وخلال رحلته إليها كان يُنَبِّهُ عبد المؤمن بن علي للمواقع ذات الأهمية الاستراتيجية ، ويدل ذلك على أنه عاد إلى بلاده وهو يحمل معه برنامجًا للدعوة إلى الخروج على المرابطين ، وخطة لحرب طويلة الأمد ضدهم ، انظر : « دولة الموحدين » (ص٢٦) ، و« السلفية وأعلامها في موريتانيا » (ص٢٠٢) .

(٣) انظر واقعة إنكاره على أخت أمير المسلمين في « دولة الإسلام » (١٦٩/٤) .

تُطرونه ، وهو مغرورٌ بكم ، فيا قاضي ، هل بلغك أنَّ الخمرَ تُبَاعُ جهارًا ، وتمشي الخنازيرُ في الأسواق ، وتُؤَخَذُ أموالُ اليتامى؟ » ، فَذَرَفَتْ عينا الملك ، وأطرق ، وفَهِمَ الدُّهاةُ طَمَعَ ابنِ تُومرت في المُلك ، فنصح مالك بن وهيب- وكان عالمًا صالحًا- سلطانه ، وقال : « إني خائفٌ عليك من هذا ، فاسجنْه ، وأصحابَه ، وأنفق عليهم مؤنتهم ، وإلا أنفقتَ عليهم خزائنَك »[1] ، فوافقه ، فقال الوزيرُ : « يَقْبُحُ بالملِكِ أن يبكي مِن وَعْظِهِ ، ثم يُسيء إليه في

---

(١) وعند ابن خَلِّكان : (ففهم الحاضرون من فحوى كلامه أنه طامع في المملكة لنفسه ، ولما رأوا سكوت الملك وانخداعه لكلامه لم يتكلم أحد منهم ، فقال مالك بن وهيب ، وكان كثير الاجتراء على الملك : « أيها الملك ، إن عندي لنصيحة إن قبلتها حمدت عاقبتها ، وإن تركتها لم تأمن غائلتها : إن هذا والله لا يريد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، إنما يريد إثارة الفتنة ، والغلبة على بعض النواحي ، فاقتله ، وقلدني دمه » ، وفي بعض الروايات : فقال الملك : « ما هي ؟ » ، قال : « إني خائف عليك من هذا الرجل ، وأرى أنك تعتقله وأصحابه ، وتنفق عليهم كل يوم دينارًا لتكتفي شره ، وإن لم تفعل ذلك لتنفقن عليه خزائنك كلها ، ثم لا ينفعك ذلك » . اهـ . « وفيات الأعيان » (٥/٥٠) ، و« الكامل » (١٠/٥٧١) .

مجلسٍ، وأن يَظْهَرَ خوفُك- وأنت سلطان- من رجلٍ فقيرٍ»، فأخذته نخوةٌ، وصرفه، وسأله الدُّعاء[١]. اهـ.

«لقد تنبه الفقيه مالك بن وهيب الأندلسي إلى أن ابن تومرت ليس طالب آخرة، وإنما هو طالب سلطان، وأشار على الأمير علي بن يوسف بقتله؛ ليكتفي شره؛ لأنه إذا وقع في بلاد المصامدة ألَّبَهُمْ على المرابطين، ولكن وزير علي بن يوسف ينتان بن عمر، وسير بن ورbيل، أقنعا أمير المسلمين علي بن يوسف بعدم الأخذ برأي مالك بن وهيب.

وألحَّ مالك بن وهيب على أمير المسلمين[٢] بتخليده في

(١) «سير أعلام النبلاء» (١٩/٥٤٢- ٥٤٤) بتصرف.

(٢) لما كثرت فتوح «الأمير» يوسف بن تاشفين رحمه الله، وترامت أطراف مملكته، قالوا له: «إن حقك يسمو على لقب الإمارة»، واقترحوا عليه أن يتسمى بـ «أمير المؤمنين»، ولكنه أبى، واعتذر بأن هذا اللقب إنما يتسمى به خلفاء بني العباس، سلالة النبي ﷺ، وأصحاب الحرمين، وأنه يُعتبر في المغرب رَجُلَهم والقائم بدعوتهم، ولذا قَبِلَ أن يسمى «أمير المسلمين».

لقد كان المرابطون يعتقدون وجوب بيعة الخليفة العباسي، فاعترفوا بالخلافة العباسية، ونقشوا اسم الخليفة العباسي على نقودهم، وعقيب انتصار =

السجن إذا لم يَقْتُلْهُ ، وقال له : « **اجْعَلْ عليه كبلًا ؛ كي لا تسمع له طبلًا** » ، فوافقه على ذلك ، وحال ينتان مرة ثانية دون الأخذ برأي مالك بن وهيب ، والذي خاطب أمير المسلمين قائلًا : « يا أمير المسلمين ، هذا وَهَنٌ في حق الملك أن تلتفت لهذا الرجل الضعيف ؛ فخلِّ سبيله ؛ إنه رجل لا يملك سد جوعه » .

لقد أصابت كلمات الوزير ينتان عزة نفس أمير المسلمين ، فاستصغر شأنه ، وأمر بإطلاق سراحه ، على شرط أن يخرج من بلاد أمير المسلمين[1] .

= ابن تاشفين في الأندلس أوفد إلى الخليفة العباسي الإمام عبد الله بن العربي يبشره بانتصاراته في الأندلس ، ويطلب تقليده بولاية البلاد التي بسط نفوذه عليها ، وعادت البعثة إلى المغرب بتقليد الخليفة وعهده للأمير يوسف بن تاشفين .
وهذه من محاسن المرابطين جزاهم الله خيرًا ، التي تجسد حرصهم على لزوم جماعة المسلمين ، رغم تمكنهم من الاستقلال بالدولة بدون أي ضرر ، وبذلك كانوا سندًا معنويًا قويًا للخلافة العباسية السنية ، انظر : « فقه التمكين عند دولة المرابطين » (ص ١٨٢- ١٩١) ، « دولة الإسلام في الأندلس » (٤/ ٣٨- ٤١) .

(١) « دولة الموحدين » (ص ٢٨، ٢٩) .

لقد صدقت فِراسة مالك بن وهيب في ابن تومرت، وندم ابن تاشفين، بعد فوات الأوان ؛ لأنه لم يأخذ برأيه[١] . لقد كان ابن تومرت مُولعًا بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وكان ينطوي قلبه- والله- تَعَالَى- أعلم- على أغراض آخرَ يشي بها قوله لبعض أصحابه قبل خروجه بالمغرب :

دَعْنِي فَفِي النَّفْسِ أَشْيَاءٌ مُخَبَّأَةٌ لأَلْبِسَنَّ لَهَا دِرْعًا وجِلْبَابَا
كَيْمَا أُطَهِّرَ دِينَ اللَّهِ مِنْ دَنَسٍ وَأُوجِبَ الفَضْلَ للسَّادَاتِ إِيجَابَا
تاللَّهِ لَوْ ظَفِرَتْ كَفِّي بمَطْلَبِهَا مَا كُنْتُ عَنْ ضَرْبِ أَعْنَاقِ الوَرَى آبَى[٢]

وكان يتمثل بقول المتنبي :

وَمَنْ عَرَفَ الأَيَّامَ مَعْرِفَتِي بِهَا وبِالنَّاسِ رَوَّى رُمْحَهُ غَيْرَ رَاحِمِ
فَلَيْسَ بمَرْحُومٍ إِذَا ظَفِرُوا بِهِ وَلَا فِي الرَّدَى الجَارِي عَلَيْهِمْ بِآثِمِ[٣]

(١) وعند ابن خلكان : « .. . فَنَدِمَ - أي الملك - على فوات محمد من يده، وعَلِمَ أن الحزم كان مع مالك بن وهيب فيما أشار به » . اهـ . من « الوفيات » (٥/٥٢) .

(٢) « سير أعلام النبلاء » (١٩/٥٥٢)، و« السابق » (ص٣٦)، وانظر : « دولة الإسلام » (٤/١٦٨، ١٧٦، ١٩٥، ١٩٦) .

(٣) « وفيات الأعيان » (٥/٥٤) .

وقال أيضًا :

وما أنا منهمُ بالعيش فيهم   ولكن معدن الذهب الرغامُ

(وسار ابنُ تُومَرت إلى أغمات ، فنزلوا على الفقيه عبد الحق المَصمودي ، فأكرمهم ، فاستشارُوه ، فقال : « هُنا لا يحميكم هذا الموضع ؛ فعليكم بتِينَمَلَّ ، فهي يومٌ عنَّا ، وهو أحصنُ الأماكن ؛ فأقيمُوا به بُرهَةً كي يُنسَى ذكرُكم » . فتجدد لابن تُومرت بهذا الاسم ذكرٌ لما عنده[1] ، فلما رآهم أهلُ الجبل على تلك الصُّورة ، علموا أنَّهم طَلَبةُ علم ؛ فأنزلوهم ، وأقبلُوا عليهم ، ثم تسامَع به أهلُ الجبل ، فتسارعُوا إليهم ، فكان ابنُ تُومرت مَنْ رأى فيه جَلادة ، عَرَضَ عليه ما في نفسه ، فإن أسرع إليه ، أضافه إلى خواصِّه ، وإن سكت ، أعرض عنه . وكَانَ كُهولُهم ينهون شُبَّانهم ، ويُحذِّرونهم[2] ، وطالت المدةُ ، ثم كثُرَ أتباعُهُ مِن جبال

---

(١) أي من خبر الجفر المزعوم ، ويحتمل أن أحد المؤرخين من أتباعه هو الذي افترى هذه الفرية تأييدًا لدعوته ، ليوهم صدق دعواه المهدية والعصمة ، أو أن الذي افتراها ابن تومرت نفسه ، والله أعلم .

(٢) في « الوفيات » (٥/٥١) : « وكان يستميل الأحداث وذوي الغرة ، وكان =

دَرن ، وهو جبل الثلج ، وطريقُهُ وَعْرٌ ضيِّق .

قال اليسع في « تاريخه » : « لا أعلم مكانًا أحصنَ من تِينَمَلل ؛ لأنها بينَ جبلين ، ولا يصلُ إليهما إلا الفارِسُ ، وربما نزَلَ عن فرسه في أماكنَ صعبةٍ ، وفي مواضِعَ يَعْبُرُ على خشبةٍ ، فإذا أُزيلت الخشبة ، انقطع الدَّرْبُ ، وهي مسافة يوم ، فشرع أتباعُه يُغيرون ، ويقتلُون ، وكثُرُوا ، وقَووا ، ثم غَدَرَ بأهل تِينَمَلَلَ الَّذين آووْهُ ، وأمر خواصَّه ، فوضعُوا فيهم السيف[1] ، فقال له الفقيهُ

= ذوو العقل والحلم من أهاليهم يُحَذِّرُونَهُمْ من اتباعه ، ويُخَوِّفونهم من سطوة الملك » .

وقال ابن خلكان - أيضًا - : « ثم إن محمدًا استدنى أشخاصًا من أهل الغرب أجلادًا في القوى الجسمانية أغمارًا ، وكان أميل إلى الأغمار من أولي الفطن والاستبصار » . اهـ من « فوات الوفيات » (٥/٤٨) .

(١) وقصة ذلك : « أن أهل تينملل بعثوا إليه بطاعة قبيلتهم « هزميرة الجبل » ، وأن سكناه لديهم أصلح له ، وأقرب إلى بث دعوته ، فسار إليهم ، ونزل بتينملل ، فأكرمه أهلها أيما إكرام ، وأكّدوا له خضوعهم وطاعتهم ، وبايعوه ، فرأى المهدي من كثرتهم وحصانة بلدهم ما راق لديه ، وكان يخرج إلى الشريعة (أي : مورد الماء الذي يُستقى منه بلا رشاء) في =

الإفريقي أحدُ العشرة مِن خواصِّه : « ما هذا ؟! قومٌ أكرمونا وأنزلونا ، نقتلُهم؟!! » فقال لأصحابه : « هذا شكٌّ في عِصمتي ، فاقتلُوه ، فقُتِلَ » .

قال اليسع : « وكُلُّ ما أذكُرُه من حال المصامِدة ، فقد شاهدتُهُ ، أو أخذتُه متواترًا ، وكان في وصيته إلى قومه : إذا ظَفِرُوا

= خارجها ، ويجلس على حجر مربع أمام المحراب ويعظ الناس ، فلاحظ أن قبيلة « هزميرة » يحضرون دائمًا متقلدين سلاحهم ، فسألهم يومًا : « لم تمسكون سلاحكهم ، وإخوانكم الموحِّدون لا يمسكونه ؟ » ، فتركوا حمل السلاح مدة ، وكان قد توجس من كثرتهم وقوتهم ، ونظر في أمرهم ، فجاءوا ذات يوم إلى سماع الوعظ دون سلاح ، وكان الموحدون بالعكس قد تقلدوا سلاحهم ، فانقضوا عليهم ، وأوسعوهم قتلًا ، فقتلوا منهم في ذلك اليوم وفقًا لرواية اليسع نحو خمسة عشر ألفًا ، وسُبيت نساؤهم ، ونُهبت أموالهم ، وقُسِّمت أراضيهم بين الموحدين » . اهـ . من « دولة الإسلام في الأندلس » (١٨٢/٤) ، ولكي لا تُحْدِثَ هذه الأعمال رد فعل عند أتباعه ، أو تلقى معارضة عند الناس ، فإنه كان يظهر بشيء من الخوارق والمعجزات ؛ حتى يؤصل في نفوس الناس شرعية ما يقوم به ، ويدعو إليه ، انظر : « دولة الموحدين » (ص٦٩) .

بمُرَابِطٍ ، أو تِلمسَاني ، أن يُحرِقوه »[1] .

« وقبل أن يعطي ابن تومرت الأمر لجيوشه بالانقضاض على المرابطين ؛ للاستيلاء على عاصمتهم مراكش ، أراد أن يُطَهِّرَ صفوفه من بعض الأشخاص الذين يشك في ولائهم له ، فأوعز في عام ٥١٩هـ/١١٢٥م لصديقه الحميم الونشريسي ، الذي كان يُظْهِرُ البلاهة - بينما هو عالم - أن يُظْهِرَ ما لديه من علم دُفْعَةً واحدة ؛ ليكون ذلك بمثابة المعجزة لابن تومرت ، وكان الونشريسي ، باتفاق مع ابن تومرت ، قد حفظ أسماء مَنْ شَعَرَ أنهم يشُكُّونَ في مهدية ابن تومرت ، وكان- أيضًا- ابن تومرت قد طلب من القبائل تزويده بأسماء المشاغبين ، فدفعها إلى الونشريسي ، فحفظها ، وبعد صلاة الفجر تقدم الونشريسي (الكاذب) ، وأعلن أنه جاءه البارحة مَلَكان ، وشقا قلبه ، وغسلاه ، وحشواه علمًا ، وحكمة ، فاختبره القوم ، فعجبوا من شدة حفظه ، ثم شهد لابن تومرت بالمهدية . ثم قال : « اعرض عليَّ أصحابك ؛ حتى أميز أهل الجنة من أهل النار ، وقد أنزل

---

(١) « سير أعلام النبلاء » (١٩/ ٥٤٤، ٥٤٥) .

اللَّه - تَعَالَى- ملائكته إلى البئر التي في المكان الفلاني ، يشهدون بصدقي ، وكان المهدي قد وضع فيها رجالًا لهذا الغرض ، فسار المهدي وأتباعه إلى ذلك البئر ، وبعد أن وقف على رأسها ، قال : « يا ملائكة الله ، إن عبد الله الونشريسي قد زعم كيت ، وكيت » ، فقال من فيها : « صدق » ، فصَدَّقَهُ الناس ، ثم أمر بطمر[1] البئر بحجة أنها مُقَدَّسَةٌ ، وواضح أن طمره للبئر كان بسبب خوفه من أن يفضحوا أمره ؛ مما سيكون له أسوأ الأثر على دعوته ، وكشف زيفها »[2] .

قال الإمام الذهبي- رحمه اللَّه- يصف هذه المذبحة المروِّعة :

« فلمَّا كان عامُ تسعةَ عشرَ وخمسمائة ، خرج يومًا ، فقال : « تعلمون أن البشير- يُريد الوَنْشَرِيسي- رَجُلٌ أُمي ، ولا يثبُت على دابَّة ، فقد جعله الله مُبَشِّرًا لكم ، مطَّلِعًا على أسراركم ، وهو آيةٌ لكم ، قد حَفِظَ القرآن ، وتعلَّم الرُّكوب » . وقال : « اقرأ » ،

---

(١) طَمَرَ البئرَ : رَدَمها .

(٢) « دولة الموحدين » (ص٨٦) .

فقرأ الختمةَ في أربعةِ أيام، وركب حصانًا، وساقه، فبُهتُوا، وعدُّوها آيةً ؛ لِغباوتهم، فقام خطيبًا، وتلا : ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ [الأنفال : ٣٧]، وتلا : ﴿مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [آل عمران : ١١٠]، فهذا البشيرُ مطَّلِعٌ على الأنفس، مُلْهَمٌ، ونبيُّكم ﷺ يقول : «إنَّ في هَذِهِ الأُمَّةِ مُحدَّثِينَ، وإنَّ عُمَرَ مِنْهُمْ»(١) . وقد صَحِبَنا أقْوَامٌ أطلعه اللهُ على

---

(١) أخرجه البخاري : (٧/٤٢)، (٣٦٨٩) في فضائل أصحاب النبي ﷺ : باب مناقب عمر، من حديث أبي هريرة، قال : قال رسول الله ﷺ : «لَقَدْ كَانَ فِيمَا قَبْلَكُمْ مِنَ الأُمَمِ نَاسٌ مُحَدَّثُونَ، فَإِنْ يَكُ فِي أُمَّتِي أَحَدٌ فَإِنَّهُ عُمَرُ» .
وأخرجه مسلم (٢٣٩٨)، والترمذي (٣٦٩٤) من حديث عائشة . وقال ابن وهب : تفسير «مُحَدَّثُونَ» : مُلْهَمُونَ، وقال ابن الأثير : «أراد بقوله : «مُحَدَّثُونَ» أقوامًا يصيبون إذا ظنوا وحدسوا، فكأنهم قد حُدِّثوا بما قالوا»، وراجع : «المهدي» ص (٣١٣) .
قال الشيخ شعيب الأرناؤوط معلقًا على استدلال ابن تومرت : «واستشهاد ابن تومرت بالحديث في غير محله، وهو دال على سوء طويته، وجراءته على الله ورسوله، فإن البشير الونشريسي قد باع نفسه من الشيطان، وصار يستلهم منه الحيل الماكرة، والأساليب الخبيثة لإضلال الناس وإفسادهم =

سرهم ، ولابُدَّ مِنَ النظرِ في أمرهم ، وتيمُّم العدل فيهم ، ثم نُودِيَ في جبال المصامدة : « من كان مطيعًا للإمام ، فليأتِ » ، فأقبلُوا يُهْرَعُونَ ، فكانوا يُعرضون على البشير ، فيُخْرِجُ قومًا على يمينه ، ويعُدُّهُم مِن أهل الجنة ، وقومًا على يساره ، فيقول : « هؤلاء شاكُّون في الأمر » ، وكان يُؤتَى بالرجل منهم ، فيقول : « هذا تائب ، ردُّوه على اليمين ، تاب البارحة » ، فيعترِفُ بما قال ، واتفقت له فيهم عجائب ، حتى كان يُطلِقُ أهل اليسار ، وهم يعلمون أن مآلَهم إلى القتل ، فلا يَفرُّ منهم أحد ، وإذا تجمَّع منهم عِدَّةٌ ، قتلهم قراباتُهم ، حتى يقتل الأبُ ابنَه ، والابن أباه ، والأخُ أخاه .

قال : « فالذي صَحَّ عندي أنهم قُتِلَ منهم سبعون ألفًا على هذه الصفة ، ويُسمُّونَهُ التمييز »[1] .

= إرضاءً لسيده ابن تومرت الذي اتخذه مطية لأطماعه ، وتحصيل مرامه ، فهو من أبعد الناس عن منزلة التحديث الجليلة التي اختص بها أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب رضي الله عنه » . اهـ . من حاشية « السير » (١٩/٥٤٦) .

(١) « سير أعلام النبلاء » (١٩/٥٤٦) ، وانظر : « دولة الإسلام في الأندلس » (٤/١٨٣) .

ويبدو أن الذي دفع ابن تومرت للقيام بعمليات التمييز هو تراجع عدد كبير من الداخلين في دعوته عنها ؛ وذلك بسبب ما تحمله من غُلُوٍّ ، وشَطَطٍ ، فقام بهذه العملية للتخلص من الذين يشك في إخلاصهم ؛ خشية أن يقوى رد الفعل المضاد لدعوته[1] .

« لقد علم ابن تومرت أن الباقين من أهلِ وأقاربِ المقتولين لا تطيب قلوبهم بذلك ، فجمعهم ، وبشَّرَهُمْ بانتقال مراكش إليهم ، واغتنام أموال المرابطين ؛ فسرهم ذلك ، وسلَّاهم عن أهلهم ، ثم ندبهم إلى قتال المرابطين ، وتحول موقف الموحدين من الدفاع إلى الهجوم ، وبعد سلسلة من الحملات الناجحة التي قام بها ابن تومرت على معاقل المرابطين أراد أن يحسم الأمر بإسقاط عاصمة المرابطين مراكش »[2] .

* * *

---

(١) « دولة الموحدين » (ص٦٩) .

(٢) « نفس المصدر » (ص٨٦) .

فَصْلٌ

قال الحافظ الذهبي – رحمه اللَّه – تَعَالَى –:

(وقال– أي عبد الواحد المراكشي– : « وكان جُلُّ ما يدعو إليه الاعتقادَ على رأي الأشعري ، وكان أهلُ الغَرْب ينافِرُون هذه العلوم ، فجمع مُتولي فاس الفقهاء ، وناظرُوه ، فظهر ، ووجد جوًّا خاليًا ، وقومًا لا يدرون الكلامَ ، فأشاروا على الأمير بإخراجه ، فسار إلى مرَّاكشَ ، فبعثوا بخبره إلى ابن تاشفين ، فجمع له الفقهاءَ ، فناظره ابنُ وهيب الفيلسوف[1] ، فاستشعر ذكاءه ، وقوةَ نفسه ، فأشار على ابنِ تاشفين بقتلِهِ ، وقال : « إن وقع إلى المصَامِدَةِ قَوِيَ شرُّهُ » ، فخاف اللهَ فيه ، فقال : « فاحبسه » ، قال : « كيف أحبِسُ مسلمًا لم يتَعَيَّنْ لنا عليه حقٌّ ؟ بل يُسافر » ،

(١) كان مالك بن وهيب مستشار أمير المسلمين علي بن يوسف ووزيره ، وكان فقيهًا زاهدًا ورعًا ، اشتغل بالفلسفة ، لكنه لم يستطع أن يقيد معارفه الفلسفية ولا أن يَبُثَّها ، « بل أضرب عن النظر ظاهرًا فيها وعن التكلم فيها لما لحقه من المطالبات في دمه بسببها » كما يقول ابن أبي أصيبعة ، انظر : « عيوان الأنباء في طبقات الأطباء » (ص٥١٥) .

فذهب ، ونزل بتينَمَلَل ، ومنه ظهر ، وبه دُفِنَ ، فبث في المصامدة العلم ، ودعاهم إلى الأمر بالمعروف ، واستمالهم ، وأخذ يُشَوِّق إلى المهدي ، ويروي أحاديث فيه ، فلما توثق منهم قال : أنا هو ، وأنا محمد بن عبد الله ، وساق نسبًا له إلى علي[1] ، فبايعوه ، وألف لهم كتاب « أعز ما يطلب » ، ووافق المعتزلة في شيء ، والأشعرية في شيء ، وكان فيه تشيع ، ورتب أصحابه ، فمنهم العشرة ، فهم أول من لبَّاه ، ثم الخمسين ، وكان يسميهم المؤمنين ، ويقول : ما في الأرض من يؤمن إيمانكم ، وأنتم العصابة الذين عنى النبي ﷺ بقوله : « لا يزال أهل الغرب

---

(١) فادَّعى أنه محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن هود بن خالد بن تمام بن عدنان بن صفوان بن جابر بن يحيى بن رباح بن يسار بن العباس بن **محمد ابن الحسن بن علي بن أبي طالب** .
علَّق الحافظ منصور بن العمادية على هذا النسب قائلًا : « وفي ذلك نظر من حيث إن محمد بن الحسن لم يُعقب » ، انظر : « سير أعلام النبلاء » (١٩/ ٥٣٩، ٥٥٢) . فإن قيل : « إن كان انتسب إلى أهل البيت ، فلا ينبغي الطعن فيه ؛ لأن الناس مصدَّقون في أنسابهم » . فالجواب : أن من يدرس سيرة ابن تومرت ، ويسبر شخصيته ، يعرف أنه كذَّاب دجَّال ، لا يتورع=

ظاهرين »[1] ، وأنتم تفتحون الروم ، وتقتلون الدجال ، ومنكم الذي يؤم عيسى ، وحدثهم بجزئيات اتفق وقوع أكثرها ، فعظمت فتنة القوم به ، حتى قتلوا أبناءهم وإخوتهم ؛ لقسوتهم ، وغِلَظِ طباعهم ، وإقدامهم على الدماء ، فبعث جيشًا ، وقال : « اقصدوا هؤلاء المارقين المبدلين الدين ، فادعوهم إلى إماتة المنكر ، وإزالة البدع ، والإقرار بالمهدي المعصوم ، فإن أجابوا ؛ فهم إخوانكم ، وإلا ، فالسنة قد أباحت لكم قتالهم » ، فسار بهم عبد المؤمن يقصد مراكش ، فالتقاه الزبير ابن أمير المسلمين ، فكلموهم بالدعوة ، فردوا أقبح رد ، ثم انهزمت المصامدة ، وقُتِل

= عن أخس الوسائل لبلوغ غاياته وأطماعه ؛ وتحقيق طموحاته ، وآية ذلك أنه ادعى المهدية بعد ادعائه النسب الشريف ؛ فصار كلابس ثَوْبَيْ زُورٍ ، وانظر ص (٧٨ - ٧٩) .

(١) وتمامه : « عَلَى الحَقِّ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ » ، أخرجه مسلم في « صحيحه » (١٩٢٥) في الإمارة من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه . والمراد بأهل الغرب في هذا الحديث أهل الشام ؛ لأنهم بالنسبة للمدينة النبوية في الجهة الشمالية الغربية . وانظر « فتح الباري » (١٣/٢٩٥) الطبعة السلفية ، وابن تومرت ينتقي النصوص المتشابهة ، ويستدل بها ، ويفسرها كما يروق له ؛ ليكتسب بها ثقة من حوله .

منهم ملحمة، فلما بلغ الخبرُ ابنَ تومرت قال: «أَنَجا عبدُ المؤمن؟» قيل: نعم، قال: «لم يُفْقَدْ أحد»، وهوَّن عليهم، وقال: «قتلاكم شهداء».

قال الأمير عزيز في «أخبار القيروان»: «سمَّى ابن تومرت أصحابه بالموحِّدين، ومن خالفه بالمجسِّمين[1]، واشتهر سنةَ خمسَ عشرةَ، وبايعْته هَرْغَة على أنه المهدي، فقصده الملثمون، فكسروا الملثمين، وحازُوا الغنائم، ووثقت نفوسهم، وأتتهم أمداد القبائل، ووُحِّدَتْ هنتاتة، وهي من أقوى القبائل»، ثم قال عزيز: (لهم تودُّد، وأدبٌ، وبشاشة، ويلبَسُونَ الثيابَ القصيرةَ

(١) ترجع هذه التسمية إلى أن ابن تومرت سأل أنصاره الموحدين في الغزوة التاسعة عما يقوله المرابطون عنهم؟ فقالوا: «إنهم لقبونا بالخوارج»، فقال ابن تومرت: «سبقونا بالقبيح، لو كان خيرًا أحجموا عنه، لقبوهم أنتم، فإن الله ذكر في كتابه: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ﴾، قولوا لهم أنتم أيضًا «المجسمون»». اهـ. من «دولة الإسلام» (ص١٨٣)، ومن المعلوم المشهور عند أهلَ العلم أن من علامات أهل البدع الوقيعةَ في أهل الحديث، وتسميتهم أهلَ السنة بالحشوية والمجسمة، تنفيرًا عن الحق وتشنيعًا عليه بلباسٍ من اللفظ القبيح، وانظر: «الرد العلمي» للمؤلف (ص ٢١٦، ٢١٧).

الرخيصة ، ولا يُخْلون يومًا من طِرادٍ[١] ، ومثاقفةٍ[٢] ، ونضال ، وكان في القبائل مفسدون ، فطَلَبَ ابنُ تُومرت مشايخَ القبائل ، ووعظهم ، وقال : لا يصْلُحُ دينُكم إلا بالنهي عن المنكر ، فابحثوا عن كُلِّ مُفْسِدٍ ، فانهوه ، فإن لم ينتَهِ ، فاكتُبُوا إليَّ أسماءَهم ، ففعلوا ، ثم هدَّد ثانيًا ، فأخذ ما تكرَّر من الأسماء ، فأفردها ، ثم جمع القبائل ، وحضَّهم على ألا يغيبَ منهم أحد ، ودفع تلك الأسماء إلى البشير ، فتأمَّلها ، ثم عرَضَهم رجلًا رجلًا ، فمن وجد اسْمَه ردَّه إلى الشمال ، ومن لم يجده بعثه على اليمين ، ثم أمر بتكتيف أهلِ الشمال ، وقال لِقراباتهم : هؤلاء أشقياء مِن أهل النار ، فلتقتُلْ كُلُّ قبيلة أشقياءَها ، فقتلوهم ، فكانت واقعةً عجيبة ، وقال : بهذا الفعل صحَّ دينُكم ، وقوي أمرُكم)[٣] .

* * *

« وتضطرب الروايات حول تحديد تاريخ زحف الموحدين

(١) طارده مطاردة وطِرادًا : حمل عليه ، واشتد في طلبه ليدركه .
(٢) المثاقفة : المجالدة بالسلاح ، والملاعبة بالسيف إظهارًا للمهارة والحذق .
(٣) « سير أعلام النبلاء » (١٩/ ٥٤٨- ٥٥٠) .

على مراكش، وسبب ذلك يعود إلى أن المعركة الفاصلة بين الطرفين جاءت بعد سلسلة معارك دامية ؛ فالوصول إلى أسوار مراكش لم يتم بسهولة ، بل كُلِّفَ الموحدون اختراقَ كلِّ الخطوط الدفاعية التي أقامها المرابطون ، وحصَّنُوها بالقلاع . على أي حال صمَّم ابن تومرت على القضاء على المرابطين بإسقاط عاصمتهم مراكش، فأخذ يستدعي القبائل إلى تينملل ليحشدهم، ويوجههم إلى ذلك الهدف المنشود .

وتوافدت القبائل على ابن تومرت ، وقد استعدت للقتال ، وتجمع منهم نحو أربعين ألفًا منهم الفرسان ، والغالب منهم رَجَّالة . وقدم عليهم الونشريسي ، ووجههم نحو مراكش ، فبدءوا بالزحف نحوها عام ٥٢١هـ/١١٢٧م ، وقبل وصولهم إلى أسوار مراكش خاضوا معارك عديدة مع المرابطين ، كانت جميعها لصالحهم[1] .

وضرب الموحدون الحصار حول مدينة مراكش مدة أربعين يومًا على أرجح الروايات ، وطوال فترة الحصار كانت تدور رحى معارك ضارية بين المرابطين المدافعين عن عاصمتهم ، والموحدين

(١) انظر تفصيل ذلك في : « دولة الإسلام في الأندلس » (٤/ ١٧٨- ١٧٩) .

الذين كانوا يتمتعون بروح معنوية عالية ؛ لكثرة انتصاراتهم على المرابطين .

وقبل بدء القتال دارت أحاديث بين الطرفين ، الغرض الأساس منها تحطيم نفسية الخصم قبل مقارعته بالسّنان ، فبادر الموحدون بإرسال رسالة إلى المرابطين يطلبون منهم الاعتراف بمهدية ابن تومرت ، والانصياع إليه ، فرد أمير المسلمين عليهم مُحَذِّرًا إياهم من عاقبة مفارقة الجماعة ، وهكذا لم يستجِبْ أي طرف للآخر .

وأخذ الونشريسي القائد العام للقوات الموحدية ، وعبد المؤمن إمام الصلاة لهم بتنظيم القوات الموحدية لخوض المعركة الفاصلة ، وما هي إلا مدة وجيزة حتى اشتبك الطرفان في معركة مروعة استمرت من الصباح حتى الغروب ، قُتِلَ فيها في بداية النهار الونشريسي ، فخلفه عبد المؤمن في قيادة الجيش ، ولما رأى المصامدة كثرة المرابطين وقوتهم أسندوا ظهورهم إلى بستان هناك ، والبستان عندهم يسمى البُحَيْرة ، وما أن جن الليل حتى قتل معظم المصامدة ، ففرَّ عبد المؤمن بنفر يسير لا يتجاوز الأربع مئة ،

ما بين فارس وراجل ، وبعد انتهاء المعركة بحثَ الموحدون عن جثة الونشريسي بين جثث القتلى ، فلم يعثروا عليها ؛ لأن عبد المؤمن كان قد واراها فورًا ، فأشاعوا فيما بينهم أنه رُفِعَ إلى السماء[1] .

وتابع عبد المؤمن مع من نجا من القتل سيره نحو تينملل ، وعندما وصل إلى هيلانة[2] استعاد أنفاسه ، وحشد جنوده ، وأعاد الكرة على مراكش ، فهُزِمَ- أيضًا- ، وقُتل من أتباعه نحو اثني عشر ألفًا ، فعاد أدراجه مع خمسين رجلًا من أتباعه إلى تينملل ، وكان البيذق قد سبق عبد المؤمن إلى ابن تومرت ، وأخبره بخبر الفاجعة التي حلت بهم في البحيرة ، فسأله ابن تومرت عن عبد المؤمن ، فقال : « هو حي » ، فرد مُعَزِّيًا : « الأمر باق » ، وأوصاهم بعدم الجزع .

... ترددت أصداء هزيمة البحيرة بين قبائل الموحدين ، فزلزلت ثقتهم بابن تومرت ، فالمهدي مؤيد من السماء ، فكيف يُهْزَم من كان حليفَه اللهُ ...، وترتب على هذا التساؤل إعادة

(١) انظر : « دولة الإسلام » (٤/ ١٨٨، ١٨٩) .

(٢) اسم قبيلة بربرية كانت تسكن بالقرب من مراكش .

النظر في عقيدة المهدي ، وعلى الرغم من كل الجهود التي بذلها ابن تومرت لإقناعهم بأن قتلاهم في الجنة ، فقد بقيت رواسب الشك في مهديته تُسَاوِرُ نفوسهم ؛ عندها لجأ ابن تومرت إلى أسلوب المكر والخداع ؛ حتى يعيد الثقة بدعوته ، وقيادته ، ومهديته ، فاتفق مع مجموعة من أتباعه على أن يدفنهم أحياء ، وجعل لكل واحد منهم متنفسًا في قبره ، وأوصاهم بأن يقولوا إذا سئلوا : « قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقًّا ؛ من مضاعفات الثواب على جهاد لمتونة ، وعلو الدرجات التي نلنا بالشهادة ، فَجِدُّوا في قتال عدوكم ، فإن ما دعاكم إليه الإمام المهدي صاحبكم حق » ، ووعدهم إذا نفذوا ذلك بأن يخرجهم ، ويجعل لهم منزلة رفيعة ، ولما ذهب أكثر الليل اجتمع بأشياخ الموحدين ، وأوضح لهم بأنهم حزب الله ، وأنصار دينه ، وطالبهم بالجد في قتال أعدائهم ، وطلب منهم - إن كانوا في شك مما يقول - أن يذهبوا سويًّا إلى قبور قتلاهم في معاركهم مع المرابطين ؛ ليحدثوهم بما لقوا من خير ، ونعيم ، وذهب معهم إلى مكان إحدى المعارك التي نشبت مع المرابطين ، وسقط فيها عدد كبير من الموحدين ، والتي يُوجَدُ

فيها ذلك النفر الذين دفنهم أحياء، ولقنهم ما يقولون:

ولما وصل رفع صوته في المقبرة قائلًا: «يا معشر الشهداء خبرونا ما لقيتم من الله - عَزَّ وجلَّ -»، فقالوا: «وجدنا ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على بال بشر»، إضافة إلى ما لقنهم إياه ابن تومرت، عندها ذُهِلَ الناس، وعادت ثقتهم بالمهدي، وبدلًا من أن يُخْرِجَ المدفونين قام بإغلاق المنافس التي كان قد تركها لهم؛ فماتوا من فورهم؛ لأنه خَشِيَ أن يخرجوا فيذيعوا سرَّه، فيفتضح أمره فتكون كارثة عليه[1].

ورأى ابن تومرت في قرارة نفسه أن الهزائم التي مُنِيَتْ بها قواته ما هي إلا نذير شؤم للإطاحة بكل مخططاته التي سَخَّر حياته من أجلها؛ ليقيم دولته المنشودة، فتفاعلت هذه الأحداث في نفسه لتورثه المرض الذي أودى بحياته بعد فترة وجيزة[2].

وتكاد تجمع معظم المصادر على أن وفاته كانت عام ٥٢٤هـ، ١١٣٠م، وتذكر المصادر الموحدية أنه لما شَعَرَ بدنو

---

(١) وصدق من قال: «من أعان ظالمًا سُلِّط عليه».

(٢) انظر: «نفس المصدر» (١٩٠/٤).

أجله استدعى أصحابه المسمين بالجماعة ، وأهل الخمسين ، فلما حضروا أخذ يعظهم ، واعدًا إياهم بالنصر على المرابطين ، ومحذرًا إياهم من الفرقة والتناحر ، وأمَّر عليهم عبد المؤمن ، وطلب منهم السمع والطاعة له ما دام مطيعًا لربه .

وبهذه المواعظ وَدَّعَ ابن تومرت أصحابه ، مُعْلِمًا إياهم بأنه راحل إلى ربه في هذه السنة ، ولما اشتد عليه مرضه قَدَّم عبد المؤمن بن علي للصلاة ، وأمره بإخفاء وفاته حتى تجتمع كلمة الموحدين على أمير ، وأن يتكفل بغسله ، ودفنه بجامع تينملل .

وعندما توفي ابن تومرت كفنه عبد المؤمن بن علي ، وصلى عليه ، ودفنه سرًّا بمسجده كما أوصاه ، وقد كتم أصحابه وفاته مدة ثلاثة أعوام[١] ، ولم يعلنوها إلا في عام ٥٢٧هـ/١١٣٢م بعد أن اتفقت كلمتهم على عبد المؤمن بن علي) . اهـ[٢] .

وأفضى ابن تومرت إلى ربه ، وهو لا يدري مصير دعوته لما

---

(١) وهذا على رواية ابن صاحب الصلاة وابن القطان كما في «دولة الإسلام» (٢١٩/٤) .

(٢) «دولة الموحدين» (ص ٨٦- ٩١) بتصرف .

لحق أتباعه من هزيمة نكراء في موقعة « البحيرة » ، وإن كان نجح في ترسيخ دعوته في قلوب أتباعه حتى صدقوه ، وآمنوا بمهديته[١] ، وعلى رأسهم عبد المؤمن تلميذ ابن تومرت الوفي ، الذي حمل الراية بعده ، وبويع سرًّا سنة ٥٢٤هـ ، ثم علنًا سنة ٥٢٦هـ[٢] . وما أن استتب له الأمر حتى عاد يناوش المرابطين ،

(١) قال ابن خلكان - رحمه الله - : « ولم يفتح شيئًا من البلاد ، وإنما قرر القواعد ومهَّدها ، ورتب الأحوال ووطدها ، وكانت الفتوحات على يد عبد المؤمن » . اهـ . « وفيات الأعيان » (٥/٥٥) .

(٢) أي بعد وفاة ابن تومرت بنحو عامين ، وهذا على رواية صاحب «روض القرطاس» كما في «دولة الإسلام» (٤/ ١٩٨، ٢٢٠، ٢٢١) .

ومن الطريف ما ذكره ابن صاحب الصلاة أن عبد المؤمن - جريًا على سنن سلفه في الدجل - دبَّر حيلة «الطائر والشبل» ، ليقنع الموحدين ببيعته ، فقد درَّبهما - أي الطائر والشبل - خُفيَة خلال فترة البيعة الخاصة - أي على مدى ثلاث سنوات - : الطائر - ولعله كان الببغاء - على أن يدعو له بالخلافة ، والشبلَ : على أن يجلس بين يديه وادعًا هادئًا ، ثم دعا بعد ذلك الأشياخ الموحدين إلى مجلسه ، واستشارهم في أمر من يتولى الخلافة ، وهنا دعا الطائر له بنطقة : « العز والتمكين للخليفة عبد المؤمن أمير المؤمنين » ، ومَثَلَ الشبل بين يديه ، رابضًا مطيعًا لإشارته ، فتأثر الحاضرون بذلك ، =

واستمر صراعه معهم عبر سلسلة طويلة من القتال المرير انتهت ببناء دولة الموحدين على أنقاض دولة المرابطين، التي اتسعت لتشمل المغرب الأقصى كله، ثم المغربين الأدنى، والأوسط، حتى امتدت دولة الموحدين من طرابلس شرقًا إلى السوسِ الأقصى غربًا، ثم دخل عبد المؤمن الأندلس سنة ٥٤٦هـ، ودان له كثير من بلاد الأندلس.

* * *

= وبايعوه، كما في «دولة الإسلام» (٤/ ٢١٩، ٢٢٠).

العَقِيدةُ التُّومَرْتِيَّةُ

إن العقيدة (التومرتية) كانت مزيجًا من أفكار منحرفة ، وخليطًا من آراء الفرق الضالة ؛ كالرافضة ، والمعتزلة ، والأشاعرة ، والخوارج :

ابْنُ تُومَرْت رَائِدُ الأَشْعَرِيَّةِ[1] في المَغْرِبِ الإسْلاميِّ :

(نهج ابن تومرت نهج الأشاعرة في تأويل بعض صفات الله -

---

(١) اعلم - رحمك الله - أنه ليس المقصود بذلك أن العقيدة الأشعرية لم تكن تعرف في المغرب الإسلامي قبل ابن تومرت ، فقد دخلته قبله في وقت مبكر ، فمن علماء الأشاعرة المغاربة قبل ابن تومرت : الفقيه أبو عمران الفاسي الذي رحل إلى بغداد عام (٣٩٩هـ) ، وتلقى أصول المذهب الأشعري على القاضي أبي بكر الباقلاني ، ومنهم : أبو الوليد الباجي (ت ٤٧٤هـ) ، وأبي بكر محمد بن الحسن المرادي (ت٤٨٩هـ) ، ويقال إنه أول من أدخل العقيدة الأشعرية إلى المغرب الأقصى ، ومنهم : القاضي أبو بكر بن العربي المعافري (ت٥٤٣هـ) الذي رحل إلى بغداد ، وأخذ العقيدة الأشعرية عن أبي حامد الغزالي ، وعاد إلى المغرب سنة (٤٩٤هـ) .
إذن لا شك أن أهل المغرب الإسلامي عرفوا العقيدة الأشعرية قبل ظهور ابن تومرت ، لكن هذه المعرفة بقيت محصورة في « أفراد » من العلماء ، ولم=

سبحانه وتعالى- ؛ **حيث يذكر ابن خلدون** أن ابن تومرت هو الذي حمل أهل المغرب على القول بالتأويل ، والأخذ بالمذهب الأشعري في كافة العقائد ، كما ذكر المراكشي أن ابن تومرت ضمَّن تصانيفه مذهب الأشاعرة في كثير من المسائل ؛ حيث كان « ... جُلُّ ما يدعو إليه علم الاعتقاد على طريقة الأشعرية ... » ، **أما المقريزي** فيرى أن ابن تومرت تعلَّم المذهب الأشعري أثناء وجوده في بلاد العراق ، فلما عاد إلى بلاد المغرب ، وأخذ بتعليم أصحابه ، علَّمهم المذهب الأشعري ، فكان ذلك سببًا في انتشار هذا المذهب في بلاد المغرب .

إن ابن تومرت من كبار الدعاة إلى المذهب الأشعري ، بل أخذ منهم أكثر المسائل إلا أنه في إثبات الصفات ، قد وافق المعتزلة

= ينديوا أنفسهم إلى الدعوة إليها ، ولم يكن لها وجود في مناهج التعليم ، في حين تغير الحال جذريًا بعد عودة ابن تومرت من رحلته المشرقية ، حيث حمل لواء الدعوة إلى الأشعرية ، وشنع على مذهب السلف ، وأعلن الحرب على أهله ، وتمكن من فرض العقيدة الأشعرية في بلاد المغرب بمكر الثعلب ، وغدر الجمل ، وقوة السيف ، انظر : «السلفية وأعلامها في موريتانيا» (ص٢٢٠- ٢٢٤) .

في نفيها، وفي مسائل قليلة غيرها)[1].

لقد أصبح ابن تومرت فيما بعد من أعلام الأشاعرة لسببين:

(**الأول**: أنه هو الذي فتح الباب في بلاد المغرب لدخول التأويل الكلامي، ولم يقتصر الأمر على هذا، بل تبنى- بصفته إمامًا مطاعًا- هذا الجانب، فكان لسلطته الدور الأكبر في انحسار مذهب أهل السنة، وفُشُوِّ مذاهب المتكلمين.

الثاني: تأليفه «المرشدة»[2]، وقد تكلمنا عنها[3]، وهي مستقاة من مذهب الأشاعرة، ولم يقتصر الأمر على هذا بل كان يفرض هذه العقيدة على الناس؛ بحيث تدرس للعوام؛ وقسمها إلى سبعة أحزاب عدد أيام الأسبوع، وقال لهم: «إن من لا يحفظ هذا التوحيد فليس بموحِّد، وإنما هو كافر لا تجوز إمامته، ولا تؤكل ذبيحته»، وأخذهم

---

(١) «دولة الموحدين» (ص٤٩).

(٢) وقد انتقد شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله «المرشدة»، في «مجموع الفتاوى» (١١/ ٤٧٦- ٤٩١) وقال: «وقد بسطنا الكلام على ذلك في كتاب كبير» (١١/٤٨٧).

(٣) راجع ص(٦).

بقراءة حزب واحد منه كل يوم إثر صلاة الصبح ، « فصار هذا التوحيد عند قبائل المصامدة كالقرآن العزيز ، لأنه وجدهم قومًا جهلة لا يعرفون شيئًا من أمر الدين ، ولا من أمر الدنيا »[1] .

لقد كان أهل المغرب في عافية من بلاء أهل الكلام ، متبعين الكتابَ والسنةَ على مذهب مالك ، وأهل المدينة ، مشتغلين بالقرآن الكريم ، وأحاديث « الصحيحين » ، و« الموطإ » ، وغيرها ، وكانوا في باب الصفات على مذهب السلف الصالح ، متبعين إمامَهُمْ مالك بن أنس - رحمه الله - ، وأصحابه ، الذين لم يُعْرَفْ عن أحد منهم القول بالتشبيه ، والتجسيم[2] ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾ [النور : ٢٦] .

يقول المؤرخ المغربي السلاوي :

« ... وأما حالهم - يعني أهل المغرب - في الأصول ، والاعتقادات ؛ فبعد أن طهرهم الله من نزعة الخارجية أولًا ،

---

(١) « الأثر السياسي للعلماء في دولة المرابطين » (ص٢٢٠) ، نقلًا عن « روض القرطاس » (ص١٧٧) .

(٢) انظر : « دولة الموحدين » (ص٥٢) .

والرافضية ثانيًا ، أقاموا على مذهب أهل السنة والجماعة مقلدين للجمهور من السلف- رَضِي اللهُ عَنْهُمْ- في الإيمان بالمتشابه[١] ، وعدم التعرض له بالتأويل ، مع التنزيه عن الظاهر[٢] ...، واستمر الحال على ذلك مدة ، إلى أن ظهر محمد بن تومرت مهدي الموحدين في صدر المئة السادسة »[٣] .

لقد سمى ابن تومرت أتباعه بالموحدين تلاعبًا بالأسماء ، وتحريفًا لمعانيها ، وتعريضًا بالمرابطين الذين اتهمهم كذبًا وزورًا بالتجسيم ؛ ومن ثَمَّ كفَّرهم ، واستحلَّ قتالهم ، وسفَكَ دماء الآلاف المؤلفة منهم ، واستحل أموالهم ، وسبى نساءهم[٤] .

قال الذهبي- رحمه الله- : (قال اليسع بنُ حزم : سَمَّى ابنُ تُومرت المرابطين بالمجسِّمين ، وما كان أهلُ المغرب يدينون إلا

(١) انظر : « الإمام ابن تيمية وموقفه من قضية التأويل » د . محمد السيد الجليند (٢٥- ٧١) ، (١٤٩- ١٨٥) .

(٢) ليس الظاهر المتبادر من إثبات الصفة للَّه عز وجل هو مشابهة الخلق ، وإنما ظاهرها التنزيه الكامل عن مشابهة الخلق ، وإثباتها على ما يليق باللَّه عز وجل .

(٣) « دولة الموحدين » (ص٦٤) .

(٤) « السابق » (ص٥٢) ، (١٠٧، ١٠٨) .

بتنزيه الله - تَعَالَى - عما لا يجب وصفُه بما يجب له ، مع تركِ خوضهم عمَّا تقصر العقولُ عن فهمه .

إلى أن قال : فكفَّرهم ابنُ تُومرت لجهلهم العَرَضَ (١) والجوهرَ (٢) ، وأن من لم يَعْرِفْ ذلك ؛ لم يعرفِ المخلوقَ من الخالق ، وبأن من لم يُهاجِرْ إليه ، ويُقاتل معه ، فإنه حلالُ الدم ، والحريم ، وذكر أن غضبَه لله ، وقيامَه حِسبةٌ) (٣) .

---

(١) العَرَضُ - في الفلسفة - ما قام بغيره ، كالبياض والطول والقِصَر ، وضده : « الجوهر » : ما قام بنفسه .

(٢) وذلك لأنه لما ناظر العلماء تجنب مناظرتهم في صميم علوم السلف كالقرآن والحديث والفقه ، وغلبهم بالعلوم التي كان المرابطون ينفرون منها كالفلسفة والمنطق والكلام ، ولعل أحسنَ تلخيص لموقف العلماء من الفلسفة في عهد المرابطين ما نجده في « وصية القاضي أبي الوليد الباجي لولديه » محذرًا من « قراءة شيء من المنطق وكلام الفلسفة ، فإن ذلك مبني على الكفر والإلحاد ، والبعد عن الشريعة » ، كما نقله في « الأثر السياسي » (ص١٢١) ، وقال المقري وهو يتكلم عما كان يشتغل به طلبة العلم في عهد المرابطين : « وكل العلوم لها عندهم حظ واعتناء إلا الفلسفة والتنجيم » . اهـ . من « نفح الطِّيب » (٢٢١/١) .

(٣) « سير أعلام النبلاء » (١٩/ ٥٥٠، ٥٥١) ، وانظر : « السلفية وأعلامها في موريتانيا » (ص ٢٠٤- ٢٠٧) .

تَأَثُّرُ ابْنِ تُومَرْتَ بالمُعْتَزِلَةِ

إلى جانب تأثره بالمذهب الأشعري : تأثر ابن تومرت بمذهب المعتزلة ؛ حيث وافقهم في نفي الصفات عن الله- سبحانه- وسمَّى ذلك توحيدًا ؛ إذ قال حينما تحدث عن صفات الله : « واشْتَغِلُوا بتعليم التوحيد ؛ فإنه أساس دينكم ، حتى تنفوا عن الخالق التشبيه ، والشريك ، والنقائص ، والآفاق ، والحدود ، والجهات ، ولا تجعلوه - سبحانه - في مكان ، ولا في جهة ؛ فإنه- تَعَالَى- موجود قبل الأمكنة والجهات ؛ فمن جعله في جهة ومكان فقد جسَّمه ، ومن جسمه فقد جعله مخلوقًا ، ومن جعله مخلوقًا فهو كعابد وثن »[1] ، لقد تبنى ابن تومرت مذهب المعتزِلَةِ في الأسماء والصفات ؛ حيث نفى كل ما عساه أن يوهم- في زعمه- الشبه والمثلية لله- سبحانه- ولو كان ذلك من الأسماء والصفات الثابتة لله في الكتاب والسنة ؛ ولهذا سمى أصحابه

---

(١) انظر لزامًا « مختصر العلو » للحافظ الذهبي ، باختصار الألباني ص (٦٩- ٧٨) .

بالموحدين ؛ لأنهم- في رأيه- هم الذين يوحدون الله ؛ لنفيهم الصفات عن الله- سبحانه وتعالى- كما كان يسمى أتباعه بالمؤمنين، ويقول لهم: «ما على وجه الأرض من يؤمن إيمانكم»[١] .

لقد استعمل الموحدون القوة في فرض عقائدهم المختلطة على الشمال الإفريقي ، واقتدوا بالمعتزلة في زمن المأمون العباسي ، في فرضهم على الناس عقائدهم تحت شعار الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر[٢] .

* * *

(١) «دولة الموحدين» (ص٤٨، ٤٩)، وانظر: «دولة الإسلام» (٤/ ٢١٣، ٢١٤).
(٢) «نفسه» (ص٥١).

ذِكْرُ مَا وَافَقَ فِيهِ الرَّافِضَةَ

ومما وافق فيه الرافضة **جعلُه الإمامةَ شعارًا لدعوته** ، فقد قال في كتابه « أعز ما يُطْلَب » : « ولا يصح قيام الحق في الدنيا إلا بوجوب اعتقاد الإمامة في كل زمان من الأزمان إلى أن تقوم الساعة ، ما من زمان إلا وفيه إمام لله قائم بالحق في أرضِه من عادٍ إلى نوح ، ومن بعده إلى إبراهيم ، ولا يكون الإمام إلا معصومًا من الباطل ليهدم الباطل ، لأن الباطل لا يهدم الباطل » .

إلى أن يقول : « **والإمامة هي عمدة الدين وعموده على الإطلاق في سائر الأزمان** » ثم يقول بعد كلام : إنه « لا يكذِّب بهذا ، إلا كافر أو جاحد أو منافق أو زائغ أو مبتدع أو مارق أو فاجر أو فاسق ، أو رَذْلٌ أو نَذْلٌ ، لا يؤمن بالله واليوم الآخر »[1] .

ووافق الرافضة أيضًا في ادعائهم العصمة لأئمتهم[2] ؛

---

(١) « دولة الإسلام في الأندلس » (٤/ ٢٠٦، ٢٠٧) .

(٢) قال ابن خلدون : « وكان من رأيه القول بعصمة الإمام علي ﷺ على رأي الإمامية ، من الشيعة » ، انظر « سير أعلام النبلاء » (١٩/ ٥٤٨) هامش رقم (١) .

وذلك أنه ادعى العصمة لنفسه ، وصار أتباعه يطلقون عليه لقب « المعصوم » ، دون ذكر اسمه ؛ لاشتهاره به .

وقد حاول ابن تومرت أن يتدرج في إظهار هذا الأمر في بادئ أمره ، فبدأ أولًا بالتلميح لهم ، ثم صرَّح بدعوى العصمة لنفسه ، وأنه المهدي المعصوم ، وروى في ذلك أحاديث كثيرة ، ولم يتورع عن الكذب في دعواه أنها تتمثل فيه ، لقد سلك مع أتباعه مسلك التدرج ، فأقنعهم بنسبه العربي الهاشمي ، ثم بالمهدية ، ثم بالعصمة .

والعصمة عند أهل السنة والجماعة لم تثبت إلا للأنبياء ، والرسل – عليهم الصلاة والسلام – فيما يُبَلِّغُونَ عن الله من شرع ، ولم يقولوا بها لسواهم ، حتى لكبار الصحابة ، الذين خصهم الله بالفضل ؛ كأبي بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلي ، وغيرهم رضي اللَّه عنهم .

إن ابن تومرت بهذا النهج يكون قد وافق الرافضة الاثني عشرية الذين قالوا بالعصمة لأئمتهم ؛ حيث يقولون بوجوب عصمتهم من الكبائر ، والصغائر ، والنسيان ؛ كما قالوا : إن الإمام كالنبي يجب أن يكون معصومًا من جميع الرذائل والفواحش ، ما ظهر منها وما بطن ، من سن الطفولة إلى الموت ، عمدًا وسهوًا ،

كما يجب أن يكون معصومًا من السهو، والخطإ، والنسيان، وهكذا نرى كيف غالى ابن تومرت في القول بالعصمة لنفسه، وهذا بلا شك انحراف عقدي خطير؛ لأن **من جعل بعد الرسول ﷺ معصومًا يجب الإيمان بكل ما يقوله؛ فقد أعطاه معنى النبوة، وإن لم يعطه لفظها**، بل لم يكتفِ بهذا الأمر؛ حيث كان يأمر بقتل كل من يشك في عصمته.

ولكي يُؤَصِّلَ هذا الادعاء الكاذب عند أتباعه ألف لهم كتاب «أعز ما يطلب»[1]، وأمرهم بقراءته، بل حفظِهِ، وهذا بلا شكٌ مما أصَّل فكر ابن تومرت، ومحبته في نفوس أصحابه.

إن عقيدة العصمة والمهدية التي غَرَسَهَا ابن تومرت في أصحابه سهلت له القضاء على خصومه، ودفع قبائل المصامدة ومن حالفها إلى مقاتلة المرابطين)[2].

---

(١) ويمكن اعتبار كتابه «أعز ما يُطلب» وصية ابن تومرت العقيدية والسياسية، فلقد شكل ما فيه من تعاليم ومبادئ - خاصة بالإمامة والزعامة السياسية والدينية - أساس الدولة الموحدية الروحي والسياسي.

(٢) «دولة الموحدين» (ص ٤٦- ٤٨) بتصرف.

ومما اقتبسه ابن تومرت من الشيعة الاعتقاد في « الجفر »، بل حُكي أنه ادَّعى أنه اطلع على كتاب « الجفر »، ومنه تعَرَّفَ - في زعمه - على صفات عبد المؤمن بن علي حين لقيه في ملَّالة[1].

فمن ثم قال فيه عبد الواحد المراكشي: « وكان يبطن شيئًا من التشيع »[2].

* * *

(١) انظر ص(٨، ١٦).

(٢) « المعجب » (ص٢٧٥).

ذِكْــرُ مَا وَافَقَ فِيهِ الخَــوَارِجَ

أوَّلاً : التَّهَوُّرُ في تَكْفِيرِ المُسْلِمِينَ :

(لقد اشتط ابن تومرت ، وانحرف عن المنهج الصحيح من أجل تحقيق أهدافه ؛ ولذلك نجده كفَّر من لم يُؤْمِنْ بما يقول ، ويَعْتَنِقْ ما يدعو إليه ، واستباح دمه ، ولو كان من أتباعه ، كما قال بكفر دولة المرابطين ، ووُجُوب جهادها ، ولتأصيل هذا المبدإ في نفوس أصحابه ؛ صرَّح به في أكثر من مناسبة ، كما ضمَّنَهُ كتبه التي ألَّفها لهم ، ورسائله التي كان يبعثها إلى الموحدين حيثما كانوا ؛ حيث جاء في إحدى رسائله أن المرابطين قد عملوا « ... على إهلاك الحرث والنسل ، والاعتداء على الناس في أخذ أموالهم ، وخراب ديارهم ، وفساد بلادهم ، وسفك دمائهم ، واستباحوا أكل أموال الناس بالباطل ، وأخذ أموال اليتامى ، والأرامل ...»[(١)].

---

(١) وقد تكون هذه الاتهامات الصادرة من خصم ظلوم من الكذب الذي لم يكن يتورع عنه ابن تومرت من أجل تثبيت دعوته ، ومع أننا لا ننزه الدولة المرابطية - عن الخطإ واضطراب الأحوال ، وطروء صور من الانحراف عن الشرع في عهدها الأخير - إلا أن علاج هذا كان النصح المخلص والأمر =

وقال ابن تومرت في رسالته إلى علي بن يوسف بن تاشفين - رحمه الله ، والتي اعْتُبِرَتْ « إعلان حرب » :

« مِنَ القائم بدين الله ، العامل بسنة رسول الله ، محمد بن

= بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، لا أن يفعل ما فعل ، وعلى كلٍّ تبقى هذه الدولة المجيدة صفحة مشرقة في التاريخ الإسلامي عامة ، وتاريخ المغرب الإسلامي خاصة ، فقد عاشت عمرها كله في الجهاد في سبيل الله لم تضع السيف قط ، وكان للمرابطين سمعة طيبة في التعفف عن أموال الرعية ، وإقامة العدل ، وإغاثة الملهوف ، وقمع الظلم ، وإشاعة الإصلاح ، والتمسك بالخلافة العباسية ، ووحدة الجماعة المسلمة ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، ابتغاء رضى الله سبحانه ، فمِن ثَمَّ رغب فيهم الناس وأحبوهم ، واستغاثهم أمراء الأندلس لإنقاذهم من النصارى ، وعبر يوسف بن تاشفين بالمرابطين ، وهزم النصارى شر هزيمة في معركة « الزلّاقة » التي أصبحت عند المغاربة والأندلسيين مثل يومي « القادسية » ، و« اليرموك » ، ولم يأخذ شيئًا من الأسلاب والغنائم ، بل آثر بها ملوك الأندلس ، وعاد إلى المغرب ، قال القاضي ابن العربي : « **ولو لم يكن للمرابطين فضيلة ، ولا تقدم ، ولا وسيلة إلا وقعة الزلاقة ؛ لكان ذلك من أعظم فخرهم** » كما في « الحلل الموشية » (ص١٤٠) ، وانظر : « السلفية وأعلامها في موريتانيا » (ص ١٧٢، ١٧٣) ، و« فقه التمكين عند دولة المرابطين » .

عبد الله – وفقه الله– إلى المغرور بدنياه علي بن يوسف ، أما بعد ، فإنا ما وجدنا لأكثركم من عهد ، وإن وجدنا أكثركم لفاسقين ، لم تخشوا عقوبة رب العالمين ، ولم تتفكروا فيمن حولكم من الظالمين ، الذين غووا فأصبحوا نادمين ، فتبعهم الناس أجمعين ، فإذا هم أخسر الخاسرين ، وقد أمرني الله بإدحاض حجة الظالمين ، ودعاء الناس إلى اليقين ، ونسأل من الله أجر المحسنين .

لا تغتروا ؛ فإن المسلمين إليكم قادمون ؛ لقتال من زاغ وجنف ، وكفر بنعمة الله ، وقد جاء في التنزيل أنكم لستم بمؤمنين ، ولا تؤمنون بـ : « لا إله إلا الله » ، وإنها كلمة تقولونها عند الخوف والتعجب ، وتارك واحدة من السنة كتاركها كلها ؛ ومن أجل ذلك دماؤكم حلالٌ ، ومالكم فَيْءٌ ، وقد بينا لكم ، وأوضحنا السبيل ، وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون ، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون ، والسلام على من اتبع الهدى ، وخشي الرحمن »[1] .

---

(١) « دولة الموحدين » (ص٨٣) نقلًا عن : « أخبار المهدي ابن تومرت » للبيذق (ص١١) .

ويذكر المراكشي أنه لما تَوَجَّهَ جيش الموحدين إلى قتال المرابطين سنة ٥١٧هـ ؛ أوصى أفراد ذلك الجيش بقوله : « اقصدوا هؤلاء المارقين المبدلين، الذين تسموا بالمرابطين، فادعوهم إلى إماتة المنكر، وإحياء المعروف، وإزالة البدع والإضرار بالإمام المهدي المعصوم، فإن أجابوكم فهم إخوانكم، وإن لم يفعلوا فقاتلوهم ؛ فقد أباحت لكم السنةُ قتالهم ...» .

وبالإضافة إلى هذه التهم الواضحة الصريحة التي قال بها ابن تومرت ضد دولة المرابطين، فإن القارئ لكتاب « أعز ما يطلب » يدرك أن ابن تومرت قد شحنه بالافتراءات، والدعاوَى الباطلة ضدهم، بل إنه قد أفرد فصولاً خاصة منه لهذا الغرض[1] .

---

(١) فقد ادعى أنهم المقصودون ببعض أحاديث أشراط الساعة، وأنهم « حفاة، عراة، عالة، رعاء الشاء، جاهلون بأمر الله، وأنهم في آخر الزمان، ويتطاولون في البنيان، وأنهم صم بكم، وأن في أيديهم سياطًا كأذناب البقر يعذبون بها الناس، وأنهم يغدون في سخط، ويروحون في لعنة ..» إلى أن قال : « وجملة علاماتهم عشرون أخبر الرسول ﷺ بجميعها قبل وجودهم، فظهرت كلها على وفق ما أخبر به » . وهكذا حاول أن يوظف بعض نصوص أشراط الساعة لخدمة مآربه، والتشنيع على المرابطين، =

وقد تنبه المرابطون لهذه التهم الموجهة ضدهم، فأخذوا بالتصدي لها ؛ حيث بينوا للناس كذب تلك التهم التي ألصقها بهم ابن تومرت، وأنها مخالفة للحقيقة، ولكن هذا العمل لم يثن ابن تومرت عن حربه الدعائية، بل إنه كثَّف جهوده في هذا الميدان.

ومما جاء في إحدى رسائله التي وجهها لأتباعه تحقيقًا لهذا الغرض : «واعلموا - وفقكم الله- أن المجسِّمين، والمكابرين، وكل من نُسِبَ إلى العلم؛ أشد في الصد عن سبيل الله من إبليس اللعين ؛ فلا تلتفتوا إلى ما يقولونه ؛ فإنه كذب، وبهتان، وافتراء على الله، ورسوله». بل أقنعهم بأن جهاد المرابطين فرضٌ عليهم، كما فُرِضَ على الصحابة جهاد الكفرة «فالدين الذي جاهدوا عليه هو الدين لا يحول، ولا يزول، حتى ينفخ في الصور، والسنة التي قاتلوا عليها هي هذه لا تتبدل، ولا تتغير، حتى يرث الله الأرض ومن عليها ... فجهاد الكفرة الملثمين قد تعيَّن على كل من يؤمن بالله، واليوم الآخر، لا عذر لأحد في تركه، ولا حجةَ له عند الله ؛ فإنهم سَعَوْا في هدم الدين، وإماتة السنة».

= انظر : «دولة الإسلام في الأندلس» (٤/ ٢١٠، ٢١١).

كان هذا هو توجيه ابن تومرت لأتباعه في حملته الإعلامية الكاذبة ضد دولة المرابطين السُّنية ، التي أقامت كيانها على مذهب أهل السنة والجماعة ، والدعوة إلى الله ، والجهاد في سبيله على هَدْى من سنة رسول الله ﷺ ؛ فقد طعن في عقيدتهم ، ووصفهم بأنهم مجسّمون ، وكفار ، لا تجوز طاعتهم ، ولا الولاء لهم ، بل يجب جهادهم ؛ ولهذا قاتل الموحدون المرابطين قتالَ المسلمين للكفار[1] حسب اعتقادهم ، وما ذلك إلا بسبب أن ابن تومرت قد نَحَا في حربه للمرابطين منحًى فكريًّا عقديًّا ، غالى فيه حتى أصبح العَداء للمرابطين اتجاهًا فكريًّا واضحًا عند ابن تومرت ، وأتباعه المخلصين لدعوته ، ومما لا شك فيه أن هذا الاتجاه الذي حدده ابن تومرت من دولة المرابطين ، قد أثر على معنوياتها ،

(١) ولهذا استحلوا أموالهم ، وخربوا ديارهم ، وسبوا نساءهم ، وسفكوا دماء رجالهم ، وباعوا أولادهم ، وأجهزوا على جريحهم ، وتعقبوا من فرَّ منهم ، ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ ، انظر : «دولة الإسلام في الأندلس» (٤/ ١٩٢) ، وكان ابن تومرت يرى أن قتال المرابطين واجب على المسلمين جميعًا ، وأن قتالهم أكبر وأوجب من قتال النصارى ، انظر : «الأثر السياسي للعلماء» (ص٢١٧) .

ثم على كيانها السياسي ؛ وذلك لأن كثيرًا من الناس قد تبنوه ، ومن ثم انبروا للعمل على حرب هذه الدولة ، والسعي إلى إسقاطها ؛ لتقوم دولة ابن تومرت على أنقاضها[1]) .

ثانيًا : التَّهَوُّرُ في سَفْكِ دِمَاءِ المُسْلِمِينَ ، بِمَا في ذَلِكَ دِمَاءُ أَتْبَاعِهِ :

قال الإمام المحقق ابن قيِّم الجوزية – رحمه الله – تَعَالَى –:

(أما مهدي المغاربة محمد بن تومرت ، فإنه رجل كذَّاب ظالمٌ متغلب بالباطل ، ملك بالظلم ، والتغلب ، والتحيل ؛ فقتل النفوس ، وأباح حريم المسلمين ، وسبي ذراريهم ، وأخذ أموالهم ، **وكان شرًّا على الملة من الحجاج بن يوسف بكثير .**

وكان يودع بطن الأرض في القبور جماعة من أصحابه أحياءً يأمرهم أن يقولوا للناس : إنه المهدي الذي بشر به النبي ﷺ ، ثم يردم عليهم ليلًا ؛ لئلا يُكذِّبُوهُ بعد ذلك ، وسمَّى أصحابَه الجهمية « الموحِّدين » نفاة صفاتِ الرب ، وكلامِهِ ، وعلوِّهِ على خلقه ،

(١) « دولة الموحدين » (٦٤– ٦٦) .

واستوائِهِ على عرشِهِ، ورؤية المؤمنين له بالأبصار يوم القيامة، واستباح قتل من خالفهم من أهل العلم، والإيمان، وتسمى بالمهديِّ المعصوم) . اهـ[1] .

وقال الإمام الحافظ ابن كثير- رحمه الله - تَعَالَى - :

(وقد رأيت لبعضهم في سيرة ابن تومرت هذا مجلدًا في أحكامه، وإمامته، وما كان في أيامه، وكيف تملَّك بلاد المغرب، وما كان يتعاطاه من الأشياء التي توهم أنها أحوال بررة، وهي مُحالات لا تصدر إلا عن فجرة، وما قَتَلَ من الناس، وأزْهَقَ من الأنفس)[2] . اهـ .

«لقد تساهل ابن تومرت في إراقة الدماء دونما مسوِّغ شرعي؛ حيث كان لا يتردد في ذلك، حينما يرى أنه يخدم دعوته، أو يحقق شيئًا من مطامحه، مهما كانت التضحيات المقدمة لهذا الغرض، وقد تأصل هذا المسلك عند ابن تومرت حيث ألبسه لباسًا دينيًا، حتى أصبح اتجاهًا دعويًا واضحًا في

---

(١) «المنار المنيف» (ص١٥٣).

(٢) «البداية والنهاية» (١٢/ ١٨٦، ١٨٧).

دعوته، ومن نماذج شططه في هذا الميدان ما ذكره ابن القطان - أحد تلاميذ ابن تومرت- أنه كان يَعِظُ تلاميذه وأنصاره في كل وقت «... ومن لم يحضر أُدِّبَ، فإن تمادى قُتِلَ، وكل من لم يحفظ حزبه عُزِّرَ بالسياط، وكل من لم يتأَدَّبْ بما أدب به ضُرِبَ بالسوط المرة والمرتين، فإن ظهر منه عناد، وترَكَ امتثال الأوامر قُتِلَ، ومن داهن قُتِلَ».

كما ذكر كل من البيذق، وابن القطان، وغيرهما من المؤرخين، أن ابن تومرت كان يقوم بما يسمى بعملية **التمييز** لأتباعه؛ حيث يَقْتُلُ كلَّ من يشك في ولائه لدعوته، وقد ذكر لنا البيذق وصفًا لعملية التمييز التي قام بها ابن تومرت قبل موقعه البحيرة سنة ٥٢٤هـ، حيث قال: «فأمر بالميز، فكان البشير يخرج بالمخالفين المنافقين، والخبثاء من الموحدين، حتى امتاز الخبيث من الطيب، ورأى الناس الحق عِيانًا، وازداد الذين آمنوا إيمانًا، وذاق الظالمون النار، فظنوا أنهم مواقعوها، وما لهم عنها من محيص... فمات يومئذ من الناس خمس قبائل ...»[1].

---

(١) «دولة الموحدين» (ص ٦٦، ٦٧).

ثالثًا : الخُرُوجُ عَلَى الإِمَامِ الشَّرْعِيِّ بالسَّيْفِ :

وهذا انحراف عما استقر عليه مذهب أهل السنة والجماعة ، وعدول عن هديهم في الصبر على الأئمة ، ولو كانوا جائرين ، فكيف بالعادلين المجاهدين « المرابطين » ؟

لقد كان أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين (٥٣٧هـ) ، ثاني أمراء المرابطين الذي ظهر ابن تومرت في عهده ؛ كان يُعَدُّ من الشخصيات النادرة في التاريخ ، فقد كان من أصلح الحكام وأشدهم تمسكًا بالدين ، عُرف بالقوة ، والعدل ، وامتاز بالعلم ، والورع ، والاستقامة ، وحسن الخلق ، والحزم ، والنباهة ، وكان مثل أبيه معظِّمًا للعلماء ، لا يقطع أمرًا دون مشورتهم ، والأخذ بفتياهم[(١)] ، أما محمد ابن تومرت فقد (كان في الحقيقة داعية سياسيًّا مصموديًّا ، يسعى إلى توحيد قبائل مصمودة ، وحفزها على التخلص من سلطان صنهاجة ، والتغلب عليها ، وإقامة دولة مصمودية مكانها)[(٢)] .

---

(١) انظر : « السلفية وأعلامها في موريتانيا » (ص٢١٢) ، و« دولة الإسلام في الأندلس » (٥١/٤ - ٥٤، ٥٨، ٢٤١، ٢٤٤) .

(٢) « أطلس تاريخ الإسلام » (ص١٨١) .

عَوَامِلُ التَّمْكِينِ لدَعْوَةِ ابْنِ تُومَرْتَ

الأَوَّلُ : شَخْصِيَّتُهُ :

لقد اجتمع في شخصية ابن تومرت مقوماتٌ فائقةٌ ، أهَّلته للقيادة ، فقد كان رجل دين ، ورجل علم ، ورجل سياسة ؛ جمع بين العبادة ، والزهادة ، والتقشف[1] ، وبين الذكاء ، وقوة النفس ، والتبحر في العلم ، وتشجيع النشاط العلمي في أتباعه ، وبين السياسة ، حيث كان المخطط الأول ، بل الوحيد ، لقيام دولة

(١) ولم يلبس ابن تومرت قط سوى ثياب الصوف من قميص وسراويل وجبة ، وقد يرتدي الثياب المرقعة ، ولا يقبل على شيء من متاع الدنيا ، حتى قيل إنه كان يقتات من غزل أخت له في كل يوم رغيفًا بقليل من سمن أو زيت ، ولم يتحول عن ذلك حينما سما شأنه ، وأقبلت عليه الدنيا ، وكان ظهور مثل هذه الشخصية المبهرة في ذلك المجتمع البربري الساذَج ، الذي اختاره مسرحًا لدعوته ، والذي كان يخيم عليه الجهل المطبق ، وتعصف به الخرافات والأساطير ، مما يضفي عليه هالة الزعامة الخارقة ، فمن ثم ألفى الطريق ممهدًا ليعلن دعوته ، ويتشح بثوب المهدي المنتظر ، وينتحل صفة الإمام المعصوم ، انظر : «دولة الإسلام في الأندلس» (٤/ ١٩١، ١٩٢) .

الموحدين ، ورسم خطوطها العريضة .

لقد نشأ محبًا للعلم ، ورحل في طلب الاستزادة إلى المشرق الإسلامي سنة ٥٠٠هـ ، فحج ، وشرع في طلب العلم ، ودامت رحلته خمسة عشر عامًا ، كان لها أثر كبير في تشكيل شخصيته ، والتأثير في آرائه .

وفي ترجمته : أنه غادر وطنه بالسوس في طلب العلم ، وعبر البحر إلى الأندلس ، ودرس في قرطبة حينًا ، ثم جاز من ثغر « ألمرية » إلى المشرق ، ومر في طريقه على « المهدية » ، وأخذ بها على الإمام المازَري ، ثم قصد إلى الإسكندرية ، ودرس بها على الإمام أبي بكر الطُّرْطُوشِيِّ ، وأدى بعد ذلك فريضة الحج ، ثم سافر إلى العراق ، وأمضى بها أكثر من عشر سنوات ، وفي بغداد درس الفقه والأصول علي أبي بكر الشاشي الملقب بفخر الإسلام ، وإلكيا الهراسي الطبري ، ودرس الحديث على المبارك ابن عبد الجبار وغيره[1] ، وبالتأمل في تاريخ وفاة المبارك بن عبد الجبار وهو سنة ٥٠٠هـ ، كما في « شذرات الذهب » (٣/

(١) « دولة الإسلام في الأندلس » (٤/ ١٦٠، ١٦١) .

٤١٢) ، نشك في لقيا ابن تومرت إياه ، لأن الأخير لم يغادر المغرب إلا سنة ٥٠١هـ ، ومن هنا اتهم بعض الباحثين أتباع ابن تومرت أنهم جمعوا لائحة من الأسماء البارزة ، وجعلوا منها أشياخًا له لصبغه بصبغة علمية أكبر[١] .

ويشبه ذلك ما قيل من أنه لقي أبا حامد الغزالي ، ودرس عليه في بغداد ، ورُدَّ هذا القول باستحالة ذلك ماديًّا . قال ابن الأثير : « والصحيح أن ابن تومرت لم يجتمع به » ، وشكك فيها ابن خلدون وابن الخطيب[٢] .

وفي بغداد تبحر في علم الكلام ، وعقائد المعتزلة ، والأشاعرة ، وذكر المراكشي في وصفه لابن تومرت أنه « كان أوحد عصره في علم خط الرمل »[٣] ، وهي صناعة يزعم أصحابها أنهم يستبطنون فيها أخبار الغيب ، ومستقبل الأحداث[٤] .

---

(١) انظر « الأثر السياسي للعلماء في دولة المرابطين » هـ ص (٢٠٧) .

(٢) انظر تفصيل ذلك في « دولة الإسلام في الأندلس » (٤/ ١٦١- ١٦٣) .

(٣) « المعجب » ص (٢٦٥) .

(٤) « الأثر السياسي للعلماء » ص (٢٠٩) .

ومكنته رحلاته المشرقية من تحصيل علوم النقل والعقل، ومكنته رحلاته المغربية مع المشرقية من الوقوف على أحوال العالم الإسلامي، واتساع خبرته بطبائع الجماعات المختلفة، واستيعاب أسباب تدهور الإمارات المغربية، الأمر الذي غرس في نفسه الطموح لنشر دعوته، وبناء دولته.

وتميز ابن تومرت بالقدرة التنظيمية، والمهارة التخطيطية، إلى جانب تميزه بالدهاء، وحسن استغلاله الفرص، وخبرته العسكرية، كما كان له منهجية تربوية، وأهداف محددة، سعى لإنجازها بكل الوسائل، ولو كانت دنيئة.

الثَّاني: الصُّورَةُ الَّتي قَدَّمَهَا لنَفْسِهِ:

شكلت عاملَ جذبٍ للمحيطين به، فقد لَفَتَ أنظار الناس إليه بإظهار الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وشجاعته في نقد الولاة، بل مبالغته في ذلك أحيانًا، وكذا اشتهاره بالزهد، والتقشف، والقدرة على المناظرة، والمحاججة.

الثَّالثُ: التَّدَرُّجُ، والمَرْحَليَّةُ في إظْهَارِ دَعْوَتِهِ:

مما وَفَّرَ لها غِطَاءً من «التقية» المرحلية حماها من وأدها في

مهدها ، واستئصالها ، وظل مُلْتَزِمًا هذا المبدأَ إلى أن « استنسر » ، بعدما تكونت قاعدة شعبية عريضة من أتباعه ، فتعذر ، بل تعسَّر على المرابطين إخماد حركته .

الرَّابعُ : قُوَّةُ جِهَازِهِ الإعْلامِيِّ ، وكَفَاءَةُ آلَتِهِ الدِّعَائِيَّةِ :

وقد كان الإعلام التومرتي جارفًا إلى حدٍّ أن الدولة المرابطية لم تَقْوَ على قمعه ، والتصدي لأكاذيبه بنفس الكفاءة ، وقد ظهرت قدراته التَّعْبَوِيَّةُ في تحريض أتباعه ، ودفعهم إلى المعارك ؛ للقتال بضراوة ضد المرابطين ، الذين وصمهم بالألقاب المنفرة ؛ كالمجسِّمين ، والزراجنة[1] ، والحشم[2] ، وأنهم شر من إبليس ، وأن حربهم أوجب من حرب النصارى ، والمجوس ، في الوقت

---

(١) الزراجنة : نسبة إلى « الزرجان »؛ وهو طائر أسود البطن أبيض الريش ؛ لأن المرابطين في زعمه بيض الثياب سود القلوب ، كما في « دولة الإسلام في الأندلس » (٤/١٨٥) .

(٢) لاتخاذهم اللثام كما يتخذه الحشم ، وهم خاصة الرجل من عبيد أو أهل أو جيرة ، وانظر في سبب تسميتهم بالملثمين : « فقه التمكين عند دولة المرابطين » (ص ٨، ٩) ، « دولة الإسلام في الأندلس » (٤/ ٢١١، ٢١٢) .

الذي لقب أتباعه بالموحدين ، تعريضًا بالمرابطين .

وقد كان من أعظم مزايا ابن تومرت العلمية ؛ إتقانه الشديد للغتين العربية والبربرية ، وكان وعظه ومخاطبته لقومه بالبربرية ، تنفذ إلى سويداء قلوبهم ، وتزيدهم فتنة به وتعلقًا ، وتوطد مكانته الدينية والسياسية ، وكانت كتب ابن تومرت- بعد القرآن والسنة- هي أشد الكتب الدينية احترامًا بين أقوام الموحدين على اختلاف قبائلهم ، لأنها- نظرًا لكتابتها البربرية- كانت ذائعة ، وكانت في متناول كل إنسان[1] .

الخامس : دعواه الانتسابَ إلى أهل بيت النبي ﷺ ، ودعواه المهدية[2] ، والعصمة :

مما سهَّل انقياد أتباعه له ، وتسليمهم لتعاليمه ، والتفاني في نصرته .

---

(١) « دولة الإسلام في الأندلس » (٢١٧/٤) .

(٢) وقد رسخ دعاة ابن تومرت في أذهان القبائل أن الفساد والظلم والجور لا تُزال إلا بالمهدي ؛ لذا فالإيمان به واجب ، ومن يشك فيه فهو كافر ، وقال ابن تومرت في شأن المهدي : « فالعلم به واجب ، والسمع والطاعة له واجب ، والتسليم له واجب ، والرضا بحكمه واجب ، ورفع الأمور إليه بالكلية =

السَّادِسُ : طَبِيعَةُ أَتْبَاعِهِ :

فقد ساعدت سذاجة المجتمع المغربي، وجهله في تغلغل أفكاره في أوساطه، وقد كان يهتم بتجنيد الأغمار، والسُّذَّج، والأحداث، الذين شكلوا قاعدته الشعبية التي توكأ عليها[١]؛ لأنهم أسلس قيادًا، وأكثر تقبلًا لحِيَلِهِ، ودَجَلِهِ[٢]، وكان يستبعد ذوي الفِطَنِ، والبصائر، ويفتك بمن يظن في ولائه له شائبة شك، عن طريق المذابح الوحشية التي أسماها «التمييز»، كما تقدَّمَ بيانه.

= لازم»، وقال: «أمر المهدي حتم، ومن خالفه يُقتل». اهـ. انظر «دولة الإسلام في الأندلس» (٤/ ٢٠٨، ٢٠٩)، والكامل لابن الأثير (٦/٥٦٢).

(١) وقد وصفهم المراكشي بأنهم «قوم صيام عن جميع العلوم» كما في «المعجب في تلخيص أخبار المغرب» (ص٢٧٠)، ووصفهم ابن أبي زرع بأنهم «قوم جهلة، لا يعرفون شيئًا من أمر الدين، ولا من أمر الدنيا» كما في «روض القرطاس» (ص١٧٧)، وانظر: «مجموع الفتاوى» (١١/٤٧٧).

(٢) انظر: «تلبيس إبليس» (ص٥٣٩- ٥٤٢). ط. المدني ١٤٠٣هـ.

السَّابعُ : مَتَانَةُ جَبْهَتِهِ الدَّاخِلِيَّةِ :

فقد أثمرت الروحُ المعنوية العالية ، والتلاحم الشديد بينه كقيادة ، وبين أتباعه ، وقوة ثقتهم في منهجهم ، وتوظيفه للعصبية القبلية ؛ جبهة داخلية متماسكة ، دعَّمها عن طريق الحيل ، والدجل ، والأكاذيب التي راجت على أتباعه الأغمار .

الثَّامِنُ : دَوْرُ عَبْدِ المُؤْمِنِ ، وشَخْصِيَّتُهُ :

فقد كان ذا مَواهِبَ سياسيَّةٍ فذةٍ ، وكفاءات متميزة ، أهَّلته لكي يكون الساعد الأيمن لابن تومرت في حياته ، ثم خليفة له بعد وفاته ؛ حيث باشر بناء الدولة ، وخاض حروبًا ضارية انتهت بسقوط دولة المرابطين ، وتوحيد الشمال الإفريقي .

التَّاسِعُ : الضَّعْفُ الَّذي بَدَأَ يَدِبُّ في دَوْلَةِ المُرَابِطِينَ :

والذي نشأ عن الانغماس في الترف ، والشهوات ، والانحراف عن الشورى ، والتعصب الأعمى لمذهب الإمام مالك - رحمه الله - ، وفقد القيادات المتميزة : في الحروب ،

أو بالموت ، والأزمات الاقتصادية العنيفة ، وأخيرًا : صدامها المسلح مع جيوش الموحدين الذي استنفد طاقتها ، وأنهك قواها ، وانتهى بالقضاء عليها .

* * *

أهَمُّ المآخِذِ على حَرَكَةِ ابْنِ تُومَرْتَ

الأوَّلُ : ادِّعَاؤُهُ المَهْدِيَّةَ :

مع أنه أبعد الناس عن صفة المهدي ، فلم يثبت انتسابه إلى أهل البيت ، ولم تنعم الأمة في عهده بالأمن ، والرخاء ، بل شقيت بسفكه الدماء ، وترويع المسلمين ، ولم ينزل المسيح- عليه السلام- في عهده ، والمهدي الحقيقي يقيم خلافة على منهاج النبوة ، أما ابن تومرت فقد انحرفت عقيدته عن منهاج النبوة ، وعقيدة السلف الصالح ، التي قال الله- تَعَالَى- فيها : ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ...﴾ الآية [البقرة : ١٣٧] ، والمهدي الحقيقي يملك سبع سنين ، وابن تومرت لم يملك لحظة واحدة[1] .

---

(١) ومن الأدلة على فساد عقيدته وزيف مهديته أنه ما كاد يمضي على وفاته قرن من الزمان حتى أصدر أحد خلفائه الملقب بالمأمون مرسومًا يقضي بإزالة اسم المهدي من الخطبة ومن السكة ، ومحو اسمه من المخاطبات ، وقال في كتابه الرسمي : «إن وصف ابن تومرت بالمهدي وبالإمام المعصوم إنما هو نفاق =

الثَّاني: ادِّعَاؤُهُ العِصْمَةَ لنَفْسِهِ:

وهذا افتراء على الله- تَعَالَى- ، وعلى دينه ، وشذوذ عن سبيل المؤمنين ، وموافقة للرافضة- قبحهم الله- وأين العصمة المدعاة ، وقد أراق دماء الآلاف من المسلمين ، وقتل من يشك في عصمته؟! ومن قال إن المهدي الحقيقي يدعي العصمة لنفسه؟! ﴿سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾ .

= وبدعة وأمر باطل ، وإنه يجب نبذه والقضاء عليه » ، وقال : « وتلك - أي دعوى المهدية - بدعة قد أزلناها ، والله يعيننا على القلادة التي تقلدناها ، وقد أزلنا لفظ العصمة عمن لا تثبت له عصمة ، فلذلك أزلنا عنه رسمه .. وإذا كانت العصمة لم تثبت عند العلماء للصحابة ، فما الظن بمن لم يدر بأي يد يأخذ كتابه ؟ أفٍّ لهم قد ضلوا وأضلوا ، ولذلك ولوا وذلوا ، ما تكون لهم الحجة على تلك المحجة ، اللهم اشهد ، اللهم اشهد أنَّا قد تبرأنا منهم تبرأ أهل الجنة من أهل النار ، إنهم في المعتقد من الكفار » .
وفي رواية أنه صعد المنبر في مراكش ، وخطب الناس ، ولعن المهدي ، وقال : «يا أيها الناس ، لا تدعوه بالمعصوم ، وادعوه بالغَوِيِّ المذموم ، إنه لا مهدي إلا عيسى ، وإنا قد نبذنا أمره النحيس به» . انتهى . ملخصًا من « دولة الإسلام في الأندلس » (٥/٣٧٠، ٣٧١) ، وانظر التعليق على عبارة « لا مهدي إلا عيسى » في « المهدي » للمؤلف ص(١٤٩) وما بعدها .

الثَّالِثُ : تَبَنِّيهِ القَاعِدَةَ المِكْيافِيلِيَّةَ « الغَايَةُ تُسَوِّغُ الوسِيلَةَ » :

ففي سبيل التمكين لدعوته ، وإقناع الناس بها ، استحل الغدر ، والكذب[1] ، والدجل ، والخداع ، مع أن صاحب دعوة الحق يتنزه عن هذه الأساليب الرخيصة ؛ إذ الحق غني عن أن يحتاج إلى هذه الأساليب الدنيئة في التمكين له ، فغايته شريفة ، ووسيلته إليها نظيفة .

الرَّابِعُ : أَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ أَدْخَلَ التَّأْوِيلَ الكَلَامِيَّ عَلَى أَهْلِ المَغْرِبِ الإِسلامِيِّ :

بل الشمال الإفريقي ، وفرضه عليهم بالقوة ، بعد أن كانوا في عافية من شره ، باتباعهم منهج السلف الصالح ، أهل السنة والجماعة ، كما أنه استبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير ، حين تبنى خليطًا من أفكار الأشاعرة ، والمعتزلة ، والخوارج ، والرافضة .

الخَامِسُ : تسَبُّبُهُ في القَضَاءِ علَى دَوْلَةِ المُرَابِطِينَ السُّنِّيَّة السلفية :

وكانت بداية هذه الجناية مبالغته في الإنكار على ابن تاشفين

---

(١) ومن كذبه أنه ادَّعى زورًا أن مكان ظهور المهدي هو المغرب الأقصى !

الذي اتقى الله فيه، وتورع عن قتله، أو حبسه، فاستغل ابن تومرت تسامحه معه، وتوصل به إلى شق عصا الطاعة، وتفريق الجماعة، وتمزيق دولة المرابطين، والقضاء عليها، مستحلًّا ذلك كله بسبب تكفيره المرابطين، بدل أن يبذل النصح المخلص بالوسائل الشرعية لذلك الملك الذي قال فيه ابن خلكان- رحمه الله-: «وكان ملكًا عظيمًا، حليمًا، ورعًا، عادلًا، متواضعًا»[1]، ووصفه عبد الواحد المراكشي بأنه: «يُعَد من الزهاد والمتبتلين أقرب منه إلى أن يُعَد من الملوك والمتغلبين»[2].

لقد أسهمت حركة ابن تومرت على المدى البعيد في ضياع الأندلس، وسقوطها بيد النصارى[3]، ومع أن عبد المؤمن أقام

(١) «وفيات الأعيان» (٥/٤٩).

(٢) «المعجب» (ص٢٥٢).

(٣) ولا شك أن في هذا عبرة تاريخية تؤكد أن فساد العقيدة يترتب عليه اضمحلال أحوال الأمة، لأن العقيدة الصحيحة هي خط الدفاع الأول الذي ينهار بانهياره ما بعده، ولا يمكن أن تعود الأمة إلى عزها ومجدها إلا بتصحيح العقيدة كما قال ﷺ: «ثم تكون خلافة على منهاج النبوة» الحديث في «مجمع الزوائد» (٥/١٨٩)، وانظر: «السلسلة الصحيحة» رقم (٥).

مملكة شاسعة امتدت إلى الأندلس ، إلا أن الواقع أن تضحيات المرابطين في الأندلس كانت من أكبر الأسباب التي مكنت الموحدين المصامدة من التغلب ، والنصر[(١)] .

يقول الدكتور علي محمد الصَّلَّابي- حفظه الله - :

(إن حركة ابن تومرت حركة تدميرية عملت على هدم أركان دولة المرابطين ، تلك الدولة التي قامت على تعاليم الإسلام النقية ، واتخذت من جهاد النصاري في الأندلس هدفًا أسمى لوجودها ، فما أفزعهم من مقر حكمهم في مرَّاكش إلى الأندلس سوى الغيرة على الإسلام ، عندما أخذت معاقل المسلمين تتهاوى تحت مطارق « ألفونسو السادس » ، وبذلك أخَّروا سقوط الأندلس بيد النصارى عدة قرون .

ولكن ما إن بدأت ثورة المهدي ابن تومرت حتى أخذت تشغلهم بعض الشيء عن واجبهم المقدس في الأندلس ، فأخذ أمير المسلمين يستصرخ قواده العظام من الأندلس ، أمثال

---

(١) « أطلس تاريخ الإسلام » (ص١٨١) .

تاشفين بن علي لمقارعة الموحدين، وأدى ذلك إلى ازدياد ضغط النصارى على المسلمين في الأندلس، وبدءوا يلتهمون المدن الأندلسية الواحدة بعد الأخرى. في هذا الوقت استطاع ابن تومرت، بواسطة المؤمنين بمهديته، أن يطيحوا بدولة المرابطين، فأثلج ذلك قلوب النصارى الذين أدركوا أن الخلاص من الوجود الإسلامي في الأندلس أضحى وشيكًا[1].

* * *

(١) «دولة الموحدين» (ص٩٤)، وانظر: «دولة الإسلام في الأندلس» (٤/ ٢٥٤) وما بعدها.

فصـــل
موقف غريب لابن خلدون

ومن الغريب الذي يلفت النظر موقف العلامة المؤرخ ابن خلدون من ابن تومرت ودعوته، فهو يدافع عن المهدي ابن تومرت، وعن صحة دعوته، وصدق إمامته، في نبذة طويلة يقول فيها:

«ويلحق بهذه المقالات الفاسدة، والمذاهب الفائلة، ما يتناوله ضعفة الرأي من فقهاء المغرب من القدح في الإمام المهدي صاحب دولة الموحدين، ونسبته إلى الشعوذة، والتلبيس فيما أتاه من القيام بالتوحيد الحق، والنعي على أهل البغي قبله، وتكذيبهم لجميع مدعياته في ذلك، حتى فيما يزعم الموحدون أتباعه من انتسابه في أهل البيت، وإنما حمل الفقهاءَ على تكذيبه، ما كمن في نفوسهم من حسده على شأنه، فإنهم لما رأوا من أنفسهم مناهضته في العلم والفتيا وفي الدين بزعمهم، ثم امتاز عنهم بأنه متبوع الرأي، مسموع القول، موطأ العقب، نفسوا عليه ذلك،

وغضوا منه بالقدح في مذاهبه، والتكذيب لمدعياته، وأيضًا فكانوا يؤنسون من ملوك لمتونة أعدائه تجلة وكرامة لم تكن لهم من غيرهم، لما كانوا عليه من السذاجة، وانتحال الديانة، فكان لحملة العلم بدولتهم مكان من الوجاهة، والانتصاب للشورى كل في بلده، وعلى قدره في قومه، فأصبحوا بذلك شيعة لهم، وحربًا لعدوهم، ونقموا على المهدي، ما جاء به من خلافهم، والتثريب عليهم، والمناصبة لهم، تشيعًا للمتونة، وتعصبًا لدولتهم». ثم يقول دفاعًا عن المهدي:

«وما ظنك برجل نقم على أهل الدولة ما نقم من أحوالهم، وخالف اجتهاده فقهاءهم، فنادى في قومه، ودعا إلى جهادهم بنفسه، فاقتلع الدولة من أصولها، وجعل عاليها سافلها، أعظم ما كانت قوة، وأشد شوكة، وأعز أنصارًا وحامية، وتساقطت في ذلك من أتباعه نفوس لا يحصيها إلا خالقها، قد بايعوه على الموت، ووقوه بأنفسهم من الهلكة، فتقربوا إلى الله تعالى بإتلاف مُهَجِهم في إظهار تلك الدعوة، والتعصب لتلك الكلمة حتى علت على الكلم، ودالت بالعدوتين من الدول، وهو بحالة من

التقشف والحصر ، والصبر على المكاره ، والتقلل من الدنيا ، حتى قبضه الله ، وليس على شيء من الحظ والمتاع في دنياه .. فليت شعري ، ما الذي قصد بذلك إن لم يكن وجه الله ، وهو لم يحصل له حظ من الدنيا في عاجله ؟ ومع هذا فلو كان قصده غير صالح لما تم أمره ، وانفسحت دعوته ، سُنَّةَ الله التي قد خلت في عباده »[1] .

وقد علق الأستاذ محمد عبد الله عنان على موقف ابن خلدون قائلًا :

« وابن خلدون يقدم إلينا هذا الدفاع عن المهدي في معرض كلامه عن أخطاء المؤرخين وأوهامهم ودعاويهم المغرضة ، وهو يقدم إلينا منها نماذج ، يصاحبه التوفيق في بعضها ، ويخطئه في البعض الآخر ، ونحن نرى أن التوفيق قد أخطأه في هذا الدفاع عن المهدي ابن تومرت ، وعن صدق دعوته ، **وقد استعرضنا فيما تقدم من حديثنا عن حياة المهدي ، ما يحملنا على الشك :**

---

(١) « المقدمة » لابن خلدون (ص٢٢) ط بولاق ، وراجع موقف ابن خلدون من أحاديث المهدي في « المهدي » للمؤلف ص (١٥٣) .

أولًا : في صدق انتسابه إلى آل البيت .

وثانيًا : في انتحاله دعوة المهدية ، وهي دعوة نشك أيضًا في صدقها من الناحية الدينية[١] « !! » والتاريخية ونحن نعتقد أن مفكرًا عظيمًا ، ومؤرخًا فيلسوفًا ، وضعي العقلية[٢] كابن خلدون ، لا يمكن أن يؤمن بصدق هذه الدعوة ، **وإنما حمل ابنَ خلدون على الدفاع عن المهدي ودعوته ، بواعثُ خاصة :**

أولها : أن بني خلدون- أسرة المؤرخ- كانت مذ غادرت الأندلس في أوائل القرن السابع الهجري- قد نزلت بتونس ،

---

(١) عفا اللَّه عن الأستاذ عنان ، فإن حقيقة المهدي المبشر بخروجه في آخر الزمان ثابتة بالأحاديث الصحيحة ، بل قد نصَّ كثير من العلماء على تواترها ، وانظر : « المهدي » للمؤلف ص (٣٣ - ٩١) .

(٢) تقوم الفلسفة « الوضعية » على أساس مادي إلحادي يؤمن بالمادة وحدها ، وينكر كل ما وراء المادة والحس ، وأن المعرفة اليقينية هي ما يقوم على الملاحظة والتجربة الحسية ، وإلا كانت وهمًا وخيالًا ، فمذهب إلحادي ينكر الدين والغيبيات ، كيف طوعت للكاتب نفسُه أن ينسب إليه العلامة المسلم المؤرخ ابن خلدون رحمه اللَّه تعالى ؟- انظر : « مذاهب فكرية معاصرة » للدكتور محمود مزروعة ص (٢٣٦ - ٢٢٥) .

وعاشت في رعاية بني حفص ملوك الدولة الحفصية الموحدية التي أسسها الأمير أبو يحيى زكريا بن عبد الواحد بن أبي حفص عمر الموحدي، وتولى أجداد المؤرخ في ظلهم مناصب النفوذ والثقة، وبدأ هو حياته العامة في ظلهم، وعاش في كنفهم رَدَحًا من الزمن، وأهدى أول نسخة من «مقدمته وتاريخه» للسلطان أبي العباس الحفصي (٧٨٤هـ)، فلم يكن من المعقول أن يجاهر المؤرخ في «مقدمته»، بالطعن في إمامة المهدي ودعوته، وهي التي كانت أساسًا لقيام الدولة الموحدية.

وثانيًا: أنه ليس من المنطق السليم، أن يكون نجاح دعوة المهدي ابن تومرت، وما ترتب عليه من قيام الدولة الموحدية، دليلًا على صدق هذه الدعوة؛ لأن النجاح السياسي والعسكري لداعية أو متغلب لم يكن قط في ذاته دليلًا على صدق إمامةٍ أو دعوة دينية.

وثالثًا: أن إنكار صدق دعوة المهدي ابن تومرت لم يكن قاصرًا على الفقهاء المرابطين، الذين يعلل ابن خلدون طعنهم في هذه الدعوة بما كان يجيش في صدورهم من حقد على رجل

يتفوق عليهم بعلمه، ويغض بهذا التفوق من مكانتهم ونفوذهم القديم لدى الدولة اللمتونية، بل شمل هذا الإنكار كثيرًا من المؤرخين »[١].

ولا يكتفي ابن خلدون بالدفاع عن صحة دعوة المهدي، بل يقرن ذلك بالدفاع عن نسبه في آل البيت، وهو هنا في تدليله أضعف منطقًا، حينما يقول: « إنه لا دليل يعضد إنكار هذه النسبة، والناس مصدَّقون في أنسابهم »[٢]، وهو إذ يشعر هنا

---

(١) بل تبرأ منه « المأمون » أحد خلفائه، كما تقدم (ص٦٨) هامش رقم (١).

(٢) قال العلامة بكر بن عبد الله أبو زيد - حفظه الله تعالى -:

« وقولهم أيضًا: (الناس مؤتمنون على أنسابهم).

وهو لا أصل له مرفوعًا، ويؤثر عن الإمام مالك - رحمه الله تعالى -.

وهاهنا فائدة يحسن تقييدها، والوقوف عليها، وهو أن هذا ليس معناه تصديق من يدعي نسبًا قبليًا بلا برهان، ولو كان كذلك لاختلطت الأنساب، واتسعت الدعوى، وعاش الناس في أمرٍ مريج، ولا يكون بين الوضيع والنسب الشريف إلا أن ينسب نفسه إليه، وهذا معنى لا يمكن أن يقبله العقلاء فضلًا عن تقريره.

إذا تقرر هذا فمعنى قولهم: (الناس مؤتمنون على أنسابهم) هو قبول =

بضعف منطقه ، يقول لنا : إن ظهور المهدي لم يكن يتوقف على نسبته ، وإنما قام أمره بعصبيته القبلية في هرغة ومصمودة ، وإن هذا النسب الفاطمي ، كان أمرًا خفيًّا عنده وعند عشيرته يتناقلونه بينهم[1] .

ويذكرنا موقف ابن خلدون في الدفاع عن دعوة المهدي ابن تومرت ونسبه ، بموقفه من نسب بني عبيد الخلفاء الفاطميين ، فهو يتصدى لتأييده وإثباته ، ويعتبر الطعن فيه من « الأخبار الواهية » التي عُني بتفنيدها في « مقدمته » ، وأن هذا الطعن يرجع بالأخص

= ما ليس فيه جرُّ مغنم ، أو دفع مذمة ومنقصة في النسب ، كدعوى الاستلحاق لولد مجهول النسب ، والله أعلم » . اهـ . من « فقه النوازل » (١/١٢٢- ١٢٣) .
وقال - حفظه الله - في موضع آخر : « إن المراد به في (اللقيط) ، فالمسلم مؤتمن عليه بحكم الشرع ، يرعى أموره ، ولا يتبناه ، ولا يُراد به ما هو شائع ، من تصديق مدعي النسب من غير بينة كاستفاضة وشهرة ونحوهما ؛ لأنه - بهذا المعنى - يناهض قاعدة الشرع من أن (البينة على من ادعىٰ) ، وقوله ﷺ : (لو يعطى الناس بدعواهم ...) الحديث » . اهـ من « التعالم » ص (١٠٧) .

(١) « المقدمة » (ص٢٣) .

إلى الأحاديث التي لُفقت لبني العباس خصوم الفاطميين تزلفًا إليهم ، ويعتمد هنا على نفس النظرية التي لجأ إليها في الدفاع عن دعوة المهدي ، وهو أن ظهور الفاطميين ، وقيام الدولة الفاطمية المترامية الأطراف ، واتصال أمرها نحوًا من مائتين وسبعين عامًا ، كل ذلك لا يمكن أن يتم لِدَعيٍّ[1] .

وهي طريقة معكوسة في التدليل ، ونظرية واضحة الضعف والسقم ، إذ كان على ابن خلدون أن يقدم لنا الأدلة المباشرة ، على صحة نسبة الفاطميين لآل البيت ، كما قدم خصومهم الأدلة على بطلان هذه النسبة .

وقد تناول كاتب مشرقي من كُتَّاب النصف الأول من القرن الثامن الهجري هو الحسن بن عبد الله العباسي في كتابه « آثار الأول وترتيب الدول » مثَلَ ابن تومرت وقصة ظهوره ، في معرض الكلام عن الزهاد ، والمغالطين باسم الزهد ، فقال :

« وفيهم أصناف من أهل الغلط في طريق الزهد ، والمغالطة

---

(١) « نفسه » (ص ١٧، ١٨) .

لأغراض أُخَرَ، منهم صنف يغلب عليهم محبة الرياسة والإمرة ...»[1] .

ويعتبر هذا الكاتب مَثَلَ ابن تومرت ، هو أقرب ما جرى في هذا المعنى ؛ معنى الداعية المتزهد المخادع الذي يبطن انتزاع الرياسة ، وأنه تذرع بالأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر[2] .

والحاصل : أن حركة ابن تومرت لا يمكن وصفها بالحركة الإصلاحية ؛ لأنها كانت حركة غلب عليها الإفساد والتدمير ، وكانت أبعد ما تكون عن معالم المنهاج النبوي ، والإصلاح السلفي التجديدي ، وبخاصة في مجال العقيدة .

* * *

(١) « آثار الأول وترتيب الدول » المنشور على هامش « تاريخ الخلفاء » للسيوطي (ص ٦١، ٦٢) ط . القاهرة ١٣٠٥هـ .

(٢) « دولة الإسلام في الأندلس » (٤/ ١٩٤- ١٩٦) .

فهرس الموضوعات

الموضوع — **الصفحة**

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة

❊ ❊ ❊

تم بحمد الله تعالى